للناشئين والشباب

13

روائــع الأدب العالمي

في كبســـولة

عرض وتبسيط: **حسين عيد**

1- استخدام القوة
2- دفتر الجذل
3- ثلاث ساعات بين طائرتين
4- صغار ملاك الأرض
5- علبة ثقاب السلامة
6- الله يعلم، لكنه يمهل
7- منجم الفضة
8- الملك الشاب
9- حكاية غريبة

مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي 13

في كبسولة

عيد ، حسين .
روائع الأدب العالمي في كبسولة (13) / عرض وتبسيط حسين عيد . ـــ ط1 ـــ
القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2014 .
200 ص ؛21 سم . (روائع الأدب العالمي في كبسولة للناشئين والشباب ؛ (13)
المحتويات: استخدام القوة، دفتر الجذل، ثلاث ساعات بين طائرتين....
تدمك : 978-977-293-712-7
1 – الأدب – مجموعات.
أ ـــ عيد ، حسين (عرض وتبسيط) .
رقم الإيداع : 24494 / 2013

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : ربيع أول 1435هـــ يناير 2014م .

المحتويات

مقدمـــة

ممّا لا جدال فيه أنّ هناك أعمالا أدبية عالمية عظيمة، تجاوزت حدود مؤلفيها وحدود بيئتهم، وانتشرت في شتى بقاع الأرض، وهو ما سمح بوضعها في كوكبة "روائع من الأدب العالمي في كبسولة"، كمحاولة متواضعة لوضع ذلك الرصيد الهائل من التجارب الإنسانية الأدبية أمام الأجيال القادمة لتستلهم منها القيمة والتجربة.

تتكون هذه الباقة الجديدة من تسعة أعمال من روائع الأدب العالمي، تجري خمسة منها في جو فعلي واقعي، وأربعة أخرى في جو خيالي غرائبي. يأتي في مقدمة المجموعة الواقعية فشل طبيب ناضج في الكشف على حلق طفلة صغيرة لتشخيص مرضها المميت ممّا اضطره إلى "استخدام القوة"، وهي للأمريكي وليام كارلوس وليامز. يليها ارتباط مزارع بالقرعات التي زرعها في أرضه لدرجة منحها أسماء، وهو ما أتاح له التوصّل إليها عند سرقتها، وذلك من خلال "دفتر الجذل" للأسباني آنطونيو دي آلاركون. واستغل بطل "ثلاث ساعات بين طائرتين" للأمريكي سكوت فيتزجرالد الوقت المتاح له في محاولة لاستعادة علاقة عابرة من مرحلة صباه. أمّا الأرجنتيني روبرتو آرلت فحاول أن يحلل ما خفي من مشاعر بين جارين من "صغار ملاك الأرض". ثم نتابع الروسي آنطون تشيكوف في "علبة ثقاب السلامة"، وهو يقدّم معالجة جديدة لنوع الأدب البوليسي خلال سعي الشرطة في رحلة وراء قاتل مجهول. أما الأعمال الغرائبية، فتبدأ من

"الله يعلم، لكنه يمهل" للروسي ليو تولستوي بمحاولة الإجابة عن سؤال: كيف يتحوّل رجل بريء إلى مذنب بجريمة قتل وسرقة يعاقب عليها بالجلد والنفي إلى سيبيريا؟ يتبعها "منجم الفضة" للسويدية سلمى لاجرلوف التي تحاول فيها أن تستكشف أهواء النفوس البشرية عندما تهبط عليها ثروات مفاجئة. وفي الثالث مع الأيرلندي أوسكار وايلد في "الملك الشاب" برؤيته الخاصة نحو قضية الحكم والملك وهو يقدمها بشكل خيالي بديع. أما الرابع والأخير فهو "حكاية غريبة" للياباني ريونسكيه أكوتاجاوا، حيث يتدخل شخص مجهول بأفعال غريبة لإنقاذ زوجة من خطر الوقوع في الخطأ.

وكلي أمل أن يجد فيها القراء بعض المتعة والفائدة.

حسين عيد

أكتوبر 2013

استخدام القوة

كان مريضا جديدا لي. كل ما حصلت عليه هو الاسم: "أولسون".. من فضلك، تعال سريعا بقدر ما تستطيع فابنتي مريضة جدا.

قابلتني الأم عندما وصلت.. امرأة ضخمة، نظيفة جدا، مهذبة، مرتاعة. قالت ببساطة:

- أنت الطبيب؟

أدخلتني إلى الجزء الخلفي، وأضافت:

- يجب أن تعذرنا يا دكتور.. ابنتي موجودة في المطبخ حيث المكان دافئ.. إنّه رطب تماما هنا أحيانا..

كانت الطفلة مرتدية ملابسها بالكامل، جالسة في حضن أبيها قرب مائدة المطبخ. حاول أن ينهض، لكنني أشرت إليه ألا يزعج نفسه.. خلعت معطفي. بدأت ألقي نظرة على الأشياء. استطعت أن أرى أنهم جميعا عصبيّون تماما، يتطلعون إليّ من أعلى إلى أسفل دون ثقة كاملة كما يحدث غالبا في مثل هذه الحالات.. كان عليّ أن أخبرهم، فهذا هو السبب في أنهم يدفعون لي ثلاثة دولارات.

أكلتني الطفلة بوضوح بعينيها الباردتين الهادئتين دون أيّ تعبير على وجهها.. لم تتحرّك. بدت أمامي هادئة، شيئا صغيرا جذابا بشكل غير عادي، قويّة كبقرة صغيرة في مظهرها. لكن وجهها كان متوهّجا، وتتنفس بسرعة، فأيقنت أن لديها حمّى شديدة.. كانت بشعرها الأشقر الغزير المدهش كواحدة من صور أولئك الأطفال التي تظهر في قصاصات الإعلان والأقسام المصوّرة في جرائد الأحد.

بدأ الأب:

- **لقد أصيبت بالحمّى منذ ثلاثة أيام. لم نعرف من أين جاءتها. أعطتها زوجتي أشياء - أنت تعرف - كما يفعل الناس.. لكنها لم تتحسنا.. ونظرا لوجود بعض المرضى حولنا .. فضّلنا أن تفحصها وتخبرنا بالأمر.**

وكما يفعل الأطباء عادة، حاولت معها محاولة كنقطة انطلاق:

- **هل لديها احتقان في الحلق؟**

أجاب الأبوان معا:

- **لا..لا..**

قالت:

- **إنّ حلقي لا يؤلمني.**

أضافت الأمّ متسائلة لابنتها:

- **هل يؤلمك حلقك؟**

لم يتغيّر تعبير الصغيرة، ولم تحرّك عينيها عني.

قلت للأم:

- هل نظرت؟

- حاولت .. لكني لم أستطع أن أرى.

بينما يحدث هذا، كان لدينا عدّة حالات دفتريا من نفس المدرسة التي ذهبت إليها الطفلة خلال هذا الشهر، وكنّا جميعا - بوضوح تام - نفكّر في ذلك، رغم أن أحدا لم يتحدّث عن هذا الشيء حتى الآن. قلت:

- حسنا.. أعتقد أنني سألقي أولا نظرة على الحلق.

ابتسمت بكلّ خبرتي المهنيّة سائلا الطفلة عن اسمها الأول.. ثم قلت:

- تعالي يا ماتيلدا.. افتحي فمك ودعيني ألقي نظرة على حلقك..

لا شيء يحدث..

لاطفتها:

- أُو.. تعالي .. فقط افتحي فمك على سعته.. ودعيني ألقي نظرة.

قلت فاتحا ذراعيّ على سعتهما:

- انظري.. ليس لديّ أيّ شيء في يديّ .. فقط.. تعالي.. ودعيني أنظر.

أومأت الأم:

- هذا رجل طيّب.. انظري.. كم هو طيّب معك.. تعالي افعلي ما يطلبه منك.. فهو لن يؤذيك.

ضغطت على أسناني باشمئزاز .. لو أنّها لم تستخدم كلمة "يؤذي" لربّما كنت قادرا على التقدّم؛ لكنني لم أسمح لنفسي أن أتعجل أو أقاطع، تكلمت فقط بهدوء وبطء مقتربا من الطفلة ثانية.. فجأة بينما كنت أحرك كرسيّ مقتربا قليلا منها أنشبت كلتا يديها غريزيا بحركة واحدة كالقطة بعيني وكادت أن تصل إليهما أيضا.. لقد ارتطمت – في الحقيقة – بنظارتي فأطارتها، وسقطت رغم ذلك غير مكسورة على بعد عدّة أقدام مني على أرضية المطبخ.

استدار كلّ من الأم والأب مرتبكين، واعتذرا ممسكين إيّاها من ذراعيها يهزانها:

– **انظري ماذا فعلت للرجل الطيّب.**

انفجرت:

– **من أجل السماء.. لا تدعوني أمامها رجلا طيّبا.. إنني هنا كي أنظر إلى حلقها فربّما يكون لديها دفتريا.. قد تموت بسببها.. لكن هذا لا يعني شيئا لها.**

ثم قلت للطفلة:

– **التفتي إليّ.. سأنظر إلى حلقك.. أنت كبيرة بما فيه الكفاية لتفهمي ما أقول.. هل ستفتحينه الآن بنفسك.. أم يجب أن أفتحه لك؟**

لا حركة.. حتى تعبيرها لم يتغيّر، مع ذلك تسارعت أنفاسها أكثر وأكثر، ثم بدأت المعركة.. يجب أن أفعلها.. يجب أن أحصل على مزرعة للحلق

لحمايتها. لقد أخبرت الوالدين أولا أنّ الأمر مرجعه كليّة إليهما. شرحت لهما الخطر قائلا إنني لن أصرّ على فحص الحلق طالما يتحمّلان المسئولية.

حذرتها الأم بشدة:

- إذا لم تفعلي ما يقوله الطبيب ستذهبين إلى المستشفى.

آه، حسنا، يجب أن أبتسم لنفسي، فرغم كلّ شيء وقعت في حبّ الطفلة الشقيّة المتوحّشة.. كان الوالدان بالنسبة لي جديرين بالازدراء. أصبحا قانطين أكثر وأكثر في الصراع الثاني.. مسحوقين، منهكين حينما ارتفعت إلى ذرى مدهشة في ثورتها الجنونية التي تولدت عن رعبها الجنوني منّي.

حاول الوالد أقصى ما يستطيع. كان رجلا ضخما، لكن للحقيقة، كان خجلا من تصرّفها، إلا أن خشيته أن يؤذيها جعلته يحررها في اللحظة الحرجة عدّة مرات عندما كنت على وشك النجاح، حتى أردت أن أقتله. لكن خوفه أيضا من احتمال إصابتها بالدفتريا جعله يخبرني أن أستمرّ، أن أستمرّ رغم أنه يكاد يسقط إعياء.. بينما تتحرّك الأم خلفنا ذهابا وإيابا رافعة وخافضة يديها بألم المتفهمة لما يجري.

أصدرت أمري:

- ضعها في مقدّمة حجرك وأمسك كلا رسغيها.

لكن حالما فعل الأب ذلك صرخت الطفلة:

- لا تؤذني، أطلق يدي.. أطلقها .. إني آمرك.

ثم التفتت بعصبية:

- توقف.. توقف.. أنت تقتلني!

قالت الأم:

- أتظنّها تحتمل ذلك أيّها الطبيب؟

قال الزوج لزوجته:

- ابتعدي.. أتريدينها أن تموت من الدفتريا؟

قلت:

- تعال الآن.. أمسكها.

سحبت رأس الطفلة بيدي اليسرى، وحاولت وضع خافض اللسان الخشبي بين أسنانها.

حاربت بأسنانها المطبقة بيأس. لكنني أصبحت الآن عنيفا على الطفلة. حاولت أن أهدئ نفسي، لكني لم أستطع.. كنت أعرف كيف أعرض الحلق للفحص، وبذلت جهدي. وعندما وضعت الملعقة الخشبية خلف الأسنان الأخيرة وضبطتها في فتحة الفم الذي فتحته للحظة، وقبل أن أستطيع رؤية أيّ شيء أغلقته ثانية، ممسكة النصل الخشبي بين ضروسها، وحولته إلى شظايا قبل أن أستخرجه مرّة أخرى.

هتفت الأم:

- ألا تخجلين من تصرفك؟

قلت للأم:

- أحضري لي ملعقة ناعمة من أيّ نوع، سنستمر بها.


قطب

كان فم الطفلة ينزف تماما، وقد جُرِح لسانها، وكانت صرخاتها وشهقاتها عصبية متوحّشة. ربّما يجب أن أكفّ الآن، وأعود بعد ساعة أو أكثر، ولا شك أنّ هذا أفضل. لكنني شاهدت طفلين على الأقل ماتا من الإهمال في مثل هذه الحالة، وشعرت في ذات الوقت أنني يجب أن أشخّص الأعراض الآن أو لن أفعلها أبدا. لكن الأسوأ هو أنني أصبحت خارج حدود المنطق. كان يمكن أن أمزق الطفلة أشلاء في ثورة غضبي وأستمتع بذلك كما أستمتع بمهاجمتها وأتحرّق شوقا لذلك.

"**يجب أن تحمي الطفلة الشقيّة الملعونة من حماقتها**".. هذا ما يقوله الفرد لنفسه في مثل هذه الأوقات. يجب أن يحمي الآخرين منها. إنّها ضرورة اجتماعية، وكلّ هذا حقيقي. لكن الغضب الأعمى، والشعور البالغ بالخجل، وتولد الرغبة إلى التحرر الفعلي، هي المحفزات التي تجعل الفرد يمضي إلى النهاية.

أخضعت عنق الطفلة وفكّيها في هجوم غير معقول، دفعت الملعقة الفضية الثقيلة بقوّة ثانية بين أسنانها إلى حلقها حتى تقيّأت.. وهناك كانت كلتا اللوزتين مغطاتين بالغشاء.. لقد حاربَتْ ببسالة لتمنعني من معرفة سرّها. أخفت وجع الحلق لمدّة ثلاثة أيام على الأقل، وكذبت على والديها كي تهرب فقط من نتيجة كهذه.

كانت الآن حقيقة غاضبة. كانت تدافع من قبل، لكنها الآن تهاجم محاولة الفرار من حضن أبيها ومهاجمتي بعنف، بينما دموع الهزيمة تعمي عينيها.

دفتر الجذل

تبدأ القصة في روتا. روتا هي أصغر المدن الساحرة، التي ترسم نصف دائرة كبيرة حول خليج كاديز. ولكن رغم كونها الأصغر، إلا أنها كانت المدينة المفضلة لدوق أوسانا الكبير، الذي بنى قلعته التي أستطيع وصفها حجرا حجرا. ومع ذلك فنحن لسنا معنيين هنا بالقلاع أو الدوقات، بل بالحقول التي تحيط بـ"روتا"، وبفلاح متواضع جدا، سندعوه باحث الجمال العجوز، رغم أن هذا ليس اسمه الحقيقي.

من حقول روتا الخصبة، خاصة حدائق الخضر، تأتي الخضراوات والفاكهة التي تزوّد بها أسواق هولفا وسفيل، ويتميّز نوع طماطمها أو قرعها، لدرجة أن سكان روتا في آندالوسيا يشار إليهم دائما برجال القرع أو رجال الطماطم، كأسماء مستعارة يفخرون بها دائما.

وحقًّا، فإنّ لهم العذر أن يشعروا بهذا الفخر، لأنه يحدث غالبا أن التربة التي تحيط بـ"روتا"، تلك التي تنتج جيدا - هذا ما يقال حول أرض مزرعة الخضر، الأرض التي تعطي ثلاثة أو أربعة محاصيل سنويا - ليست تربة على الإطلاق، لكنها مجرّد رمال نظيفة، تفجّرت من المحيط بفعل الريح الغربية العاصفة، وتناثرت فوق كلّ إقليم روتا.

لكن قسوة الطبيعة هناك أكثر تعويضا لكدح الإنسان. وأنا لم أرَ أبدا، وكذلك لم أعتقد أنّ هناك في كلّ أنحاء العالم، عاملًا زراعيًّا يعمل بشدّة كفلاح روتا، حيث لا يوجد حتى مجرّد مجرى مائي صغير يجري بين تلك الحقول الكئيبة، فماذا عنها؟ لقد حفر زارع القرع عدة آبار، يرفع منها السائل الثمين، الذي يمثل دماء الحياة لخضراواته، كما يقضي زارع الطماطم نصف حياته باحثا عن مواد يمكن استخدامها كسماد، وحين يتوفر له هذان العنصران؛ ماء وطعام النبات، فإن زراع خضر روتا يبدأ في تسميد ربى صغيرة جدا في الأرض، ويبذر في كل منها بذور طماطم أو قرع، ويرويها بأن ينقط لها بيده، كما لو كان يعطي شريانا لطفل.

منذ ذلك الحين، وحتى وقت الحصاد، كان الفلاح يعتني بنباتاته يوميا، كما لو كانوا يتقافزون هنا، معاملا إيّاهم بحبّ يمكن مقارنته فقط بحبّ الأبوين لأطفالهما، فيضيف يوما بعض السماد لنبات، ثم لآخر غيره وهكذا، ويدفع جرّة ماء إلى ثانٍ، ويقتل في هذا اليوم الحشرات التي تأكل الأوراق، ويغطي في اليوم التالي القشّ والأوراق الميّتة لتلك التي لا تحتمل الشمس كثيرا، أو تلك التي تتعرض كثيرا للرياح القادمة من البحر. وذات يوم أحصى السيقان، والأزهار، والثمار الأكثر قيمة، وفي اليوم التالي تحدّث إليها، معتنيا بها، مقبلا إيّاها، مباركا لها، متماديا حتى أنه سمّاها أسماء مميّزة للتعرّف عليها وتحديدها في ذهنه.

ودون مبالغة فقد صار الفلاح بذلك مضرب المثل (وقد سمعت هذا يحكى عدّة مرّات في روتا)؛ إن الفلاح في ذلك المكان يلمس بيديه كلّ نبات طماطم ينمو في قطعة من أرضه، على الأقل أربعين مرّة، وهو ما يفسّر لماذا ينتهي فلاحو هذا الإقليم وقد انحنت ظهورهم حتى تكاد تلامس ركبهم.

حسنا، لقد كان باحث الجمال العجوز واحدا من أولئك الفلاحين.

بدا جسمه منحنيا تماما في وقت الواقعة، وهو ما كنت شاهدا قريبا منه. كان حينها في الستين من عمره، وقد أمضى أربعين عاما معتنيا بالحديقة قرب الشاطئ.

لقد نمّى في ذلك العام عددا ضخما من القرع، الذي تحوّل تماما إلى اللون الذهبي، كما لو أنه في شهر يونيو. كان باحث الجمال العجوز عارفا للشكل، اللون، وحتى الاسم لكلّ الأربعين، الأضخم والأكثر لونا ذهبيا، والتي كانت تومئ "اطهني!".

قال برقة، بنظرة أسى: قريبا، سوف نفترق!

أخيرا، في فترة بعد ظهيرة، قرّ رأيه على التضحية، وأعلن الجملة المريرة، قائلا:

- غدا سأقطع تلك الجميلات الأربعين، وآخذهن إلى السوق في كاديز.. سعداء من سيأكلونها!

ثم تجوّل ببطء، لاهيا، إلى كوخه، ممضيا الليل يعاني كربا، كالأب الذي على وشك أن يزوّج ابنته في الصباح التالي.

كان يتنهد من وقت إلى آخر، غير قادر على النوم: "**يا لقرعي المسكين!**".
ثم استدار قائلا أخيرا لنفسه: "**وماذا عليّ أن أفعل غير أن أبيعها؟ لهذا نمّيتها! إنّها على الأقل تساوي 15 دورس**".

تخيّل من ثم دهشته وغضبه العظيم ويأسه في الصباح التالي، عندما ذهب إلى حقل القرع، ووجد أن شخصا ما قد سرق الأربعين قرعة!

بدأ يفكر مليّا، فتوصّل إلى أنّ قرعه لا يمكن أن يكون في روتا، حيث يكون مستحيلا بيعه دون مخاطرة التعرّف عليه.

قال فجأة: "**لذا أفترض أنها في كاديز!**"..

"**إنّ اللص الذي سرقني حوالي التاسعة أو العاشرة مساء قد هرب في قارب البضائع .. سأذهب إلى كاديز هذا الصباح في "قارب الساعة"، وهناك سأمسك النذل، وأستعيد البنات اللاتي ربيتهن**".

راح يغمغم وهو يحوم لأكثر من عشرين دقيقة حول مشهد الكارثة، ثم راح يحصي القرع المفقود، حتى اقتربت الساعة من الثامنة، فمضى في اتجاه رصيف المرفأ.

كان القارب على وشك أن يبحر. إنّه معدّية صغيرة تنقل المسافرين إلى كاديز كلّ صباح في التاسعة، تماما مثلما يغادر قارب البضائع في منتصف الليل بالفاكهة والخضراوات. لقد سمّوه "قارب الساعة" لأنه في ساعة واحدة، وربّما في وقت أقلّ أحيانا، يقطع الفراسخ الثلاثة، عابرا بين روتا وكاديز.

كانت الساعة، حينئذ، العاشرة والنصف صباحا، حين توقف باحث الجمال العجوز أمام كشك خضراوات في سوق كاديز، وقال لرجل البوليس، الذي بقي معه طويلا مشيرا إلى بائع:

- هذا قرعي! اقبض على هذا الرجل.

- يقبض عليّ؟

أجاب الرجل ممتلئا بالدهشة:

- هذا قرعي.. لقد اشتريته.

- قل هذا للقاضي.

أجاب باحث الجمال العجوز.

- آه، لا!

- آه، نعم!

- أنت لصّ!

- أنت كذاب!

- تكلما بأدب أكثر! أيها الرفيقين، لا يجب أن يهين كلّ منكما الآخر بهذا الشكل!

قال رجل البوليس بهدوء معطيا دفعة في الصدر لكلّ منهما.

بمضي الوقت تجمّع الناس، وكان بينهم المسئول الرسمي، مبديا اهتمامه بما يجري في السوق العام، وعندما تمّ إخبار المسئول بكلّ تفاصيل الحادث، سأل البائع بلهجة خطيرة:

- ممن حصلت على هذا القرع؟

قال البائع:

- من السيد "فولانو"، رجل من روتا.

- قد يكون هو!

تراجع باحث الجمال العجوز:

- حينما لا تثمر حديقته البائسة، فإنه يسرق من جيرانه!

قال المسئول:

- لكن بافتراض أنك قد سرقت منك الأربعون قرعة الليلة، كيف تعرف أنّ تلك، وليس غيرها، هي ما يخصّك؟

أجاب باحث الجمال العجوز:

- حسنا، ذلك لأنني أعرفها كما تعرف أنت بناتك، إذا كان لديك أيّ منهن! ألا تفهم، لقد صلبت عودها! انظر أيّها الرجل! هذه الواحدة "التخينة الصغيرة"، وهذه "الخدود المكتملة"، وهذه "الطفل المضروب"، وهذه "الوجه المتورّد"، وهذه "مانويلا" لأنها تشبه ابنتي الوسطى.

وبدأ الرفيق المسكين يبكي كطفل.

قال المسئول:

- كلّ هذا يبدو جيّدا، لكن القانون لا يكتفي بمجرّد تعرفك على القرع خاصتك. يجب أن تعرفها ببرهان ساطع. أنتم هناك، ليس هذا موضوعا مضحكا.. أنا محامٍ.

- حسنا، سترى الآن كيف أبرهن للعالم أجمع هنا، أنّ هذا القرع قد ترعرع في حقل جذوعي.

قال باحث الجمال العجوز ذلك، وهو يسقط الحقيبة التي كان يحملها، ثم انحنى ويدأ يفتحها بهدوء. أصبح كلّ من حوله أكثر فضولا:

- ماذا سيخرج منها؟

تعجبوا جميعا.

في تلك اللحظة، جاء شخص آخر كي ينظر إلى ما يجري في الزحام، وعندما رآه البائع، تعجب وقال:

- أنا سعيد جدا أنك قد وصلت أيها العجوز "فولانو".. هذا الرجل يقول إن هذا القرع الذي اشتريته منك ليلة أمس مسروق. ردّ عليه!

تحوّل لون الوافد الجديد فأصبح أكثر اصفرارا من الشمع، وحاول أن يهرب، ولكن أوقفه البشر الآخرون، وأمره المسئول بنفسه أن يبقى. أما بالنسبة لباحث الجمال العجوز فقد تحدّى اللص المفترض، قائلا:

- سترى الآن شيئا مسليا!

استعاد العجوز "فولانو" رباطة جأشه، وأجاب:

- **أنت الذي يجب أن يراعي ما يقول، لأنك إذا لم تستطع إثباته ولن تستطيع، فإنك ستذهب إلى السجن. هذا القرع ملكي، ونمّيته في أرضي ككلّ الأخريات التي أحضرتها إلى كاديز هذا العام، ولن يستطيع أيّ شخص أن يثبت أني لم أفعل.**

كرر باحث الجمال العجوز كلماته، بعد أن انتهى من فتح حقيبته:

- **ستری الآن حالا.**

سقطت حزمة كبيرة من سيقان خضراء على الأرض، بينما كان الفلاح العجوز جاثما على عقبيه، مشيرا إلى الجميع:

- **سادتي، أليس واجبًا عليكم أن تدفعوا ضرائب؟ ألم تلاحظوا أن الدفتر الأخضر الذي يستقطع منه المحصل إيصالاته، يترك فيه دائما قطعة حتى يستطيع أن يكتشف مؤخرا إذا كانت بعض إيصالاته مزيفة أم لا؟**

قال المسئول بوقار:

- **إن ما تتحدّث عنه يسمى دفتر الجذل(*).**

- **حسنا، هذا هو ما أحضرته هنا معي، قطعة دفتر جذل الفروع الخاص بي. بكلمات أخرى، السيقان التي كانت ملتصقة بالقرع، قبل أن يسرقها هذا اللص مني. هذا الساق يذهب مع هذه القرعة.. لا يستطيع أحد أن ينكر هذا. هذا الآخر - الآن ستری - ينتمي إلى هذه. هذا الأنحف يذهب مع تلك الموجودة هناك تماما، وهذا مع هذه، وتلك مع تلك ..**

(*) الجذل: هو أصل الشجرة الباقي بعد قطع جذعها، أو ذهاب فرعها.



وبينما كان يتكلم، ظلّ يلائم السيقان مع القرع واحدة بواحدة. رأى المشاهدون المندهشون كيف أنّ كلّ ساق تلاءمت مع قرعة، وتصاعدت إثارتهم بهذا البرهان البارع، لدرجة أنهم جميعا قرروا أن يساعدوا باحث الجمال العجوز، صائحين:

- مطلقا! تماما! ليس هناك شكّ! انظروا فقط! هذا يذهب هنا.. ذاك هناك.. هذا الآخر يذهب هنا، وذاك هناك..

امتزجت قهقهة الرجال بصفارات الأطفال، ولعنات النساء، بنشيج الانتصار للفلاح السعيد، وبالضربات التي كان يوجهها رجل البوليس إلى اللص المتهم.

من الضروري أن نضيف بجدّية، أنه إلى جانب ذهاب اللص إلى السجن، فقد اضطر أن يعيد خمسة عشر دورس للبائع، الذي سلمها بدوره إلى باحث الجمال العجوز، الذي بدأ العودة إلى روتا راضيا تماما، مغمغما لنفسه وهو في طريقه إلى البيت:

- كم بدا جمالها في السوق! كان يجب أن أستعيد "مانويلا" كي آكلها الليلة، وأوفر البذور!

ثلاث ساعات بين طائرتين

كانت مصادفة عجيبة تلك التي حدثت لـ"رونالد" الذي كان رائق المزاج موفور الصحّة، جسورا، يداخله شعور ضجر لمن أنجز عملا وربّما أراد الآن أن يكافئ نفسه.

عندما هبطت الطائرة، خرج إلى ليل صيف منطقة غرب أوسطية، وواجه مطارا معزولا لقرية قديمة. راح يفكر كعجوز هندي أحمر.. إنها مجرّد "محطة سكة حديد". لم يكن يعرف إن كانت فتاته ما تزال على قيد الحياة، أو تعيش في هذه القرية، وما هو لقبها الحالي. ومع تصاعد الإثارة، بحث في دليل التليفون عن اسم أبيها الذي ربّما يكون قد مات أيضا في مكان ما خلال العشرين سنة الأخيرة تلك.

- رقم القاضي هارمون هولمز - هيل سايد 3194.

أجاب سؤاله عن نانسي هولمز صوت امرأة لاهية:

- نانسي هي السيدة والتر جيفورد الآن. من السائل؟

لكن دونالد أغلق الخط دون إجابة، فقد اكتشف ما أراد أن يعرفه، ولديه ثلاث ساعات فقط. إنه لا يتذكر أيّ "والتر جيفورد"، ثم كانت هناك لحظة توقف مؤقت أخرى عندما أمعن النظر في دليل التليفون ثانية، فربما تكون قد تزوّجت خارج المدينة.

وجد رقم والتر جيفورد – هيل سايد 1911، وعادت الدماء ثانية إلى أطراف أصابعه:

– هالو.

– هالو. هل السيدة جيفورد موجودة؟ إنني صديق قديم لها.

– هذه هي السيدة جيفورد.

تذكّر، أو ظنّ أنه تذكّر السحر الجميل في صوتها:

– أنا دونالد بلات. إنني لم أرك منذ كنت في الثانية عشرة من عمري.

– أوووه.

كان ردّا مكتمل الدهشة، شديد التهذيب، لكنه لم يميّز فيه أيّ فرح أو تعرّف أكيد.

– دونالد!

أضاف صوتها.. كان فيه شيء هذه المرّة، أكثر من مقاومة الذاكرة.

– متى عدت إلى المدينة؟

ثم بمودّة:

– أين أنت؟

– أنا موجود خارج المطار .. فقط لعدة ساعات.

– حسنا، تعال وزرني.

– أعتقد أنك لن تذهبي إلى النوم الآن..

– يا للسماء. لا!

هتفت:

- أنا جالسة هنا، أتناول جرعة من شراب. أخبر سائق سيارة الأجرة فقط بالعنوان..

حلل "دونالد" المحادثة وهو في طريقه إليها بسيارة الأجرة. أشارت كلمتاه "خارج المطار" إلى أنّه يمكن تصنيف موقعه في طبقة البورجوازية العليا، وقد تشير وحدة "نانسي" إلى أنها تحوّلت إلى امرأة غير جذابة بدون أصدقاء. ربّما كان زوجها بعيدا أو في الفراش وصدمته جرعة الشراب التي تتناولها – لأنّها ظلت في أحلامه في العاشرة من عمرها – لكنه كيّف نفسه بابتسامة.. لعلها تقترب الآن من الثلاثين.

في نهاية دورة السيارة، رأى امرأة ذات شعر أسود قليل الجمال، تقف أمام باب مضاء، وفي يدها كأس. خرج "دونالد" من سيارة الأجرة مجفلا من وجودها. تساءل:

- السيدة "جيفورد"؟

أضاءت ضوء الرواق، وحملقت إليه بعينين واسعتين مترددتين، وسرعان ما ومضت ابتسامة خلال تعبيرها المرتبك:

- "دونالد".. أهذا أنت؟ لقد تغيّرنا جميعا. آه، إنّ هذا لجدير بالملاحظة!

عندما كانا يدخلان، ردد صوتاهما كلمات "كل هذه السنين"، وشعر "دونالد" بهبوط في معدته. استعاد على أثره جزءا من مشهد آخر لقاء لهما، حينما ركبت وراءه على الدراجة، متشبثة به حتى الموت. ومن ناحية أخرى

بدت نذر خوف من ألا يكون لديهما ما يقولانه. كان ذلك مثل اجتماعٍ شَمِل حشدا، لكن ظلّ هناك أيضا احتمال الفشل في أن يجد الماضي وقد اختفى تحت صخب المناسبة المتعجل. أخيرا، تيقن أنّ هذه قد تكون ساعة طويلة فارغة. غاص يائسا.

- كنت دائما شخصا محبوبا، لكني مصدوم قليلا أن أجدك جميلة كما كنت.

لقد أثمرت كلماته عن تعرفهما الحالي على حالتهما المتغيّرة، والمجاملة الجريئة جعلتهما غريبين متعاطفين، بدلا من صديقي طفولة منقضية.

تساءلت:

- هل تتناول كأسا؟ لا؟ أرجوك ألا تظنّ أنني أصبحت شاربة سرّية، ولكن كانت هذه ليلة كئيبة، فقد كنت أتوقع عودة زوجي، إلا أنّه أبرق بأنه سيمدد غيابه ليومين قادمين. إنّه طيّب جدا يا "دونالد"، وجذاب، لكنه مختلف عن لونك وطرازك.

ترددت:

- وأعتقد أنه مهتم بشخص ما في نيويورك، وأنا لا أدري.

أكّد لها:

- يبدو هذا مستحيلا بعد أن رأيتك. لقد تزوّجت لمدة ست سنوات، وكان هناك وقت عذبت فيه نفسي بهذه الطريقة. وذات يوم أخرجت الغيرة من حياتي إلى الأبد. وبعد أن ماتت زوجتي، كنت سعيدا لما فعلت. لقد

خلفت ذكرى غنيّة جدا؛ لأنك حين تفكرين بعمق، لن تجدي شيئا صعبا أو فاسدا أو مشوّها.

تطلعت إليه باهتمام ثم برقة بينما كان يتحدّث:

- أنا آسفة جدا.

قالت، وبعد دقيقة كاملة استطردت:

- لقد تغيّرت بعض الشيء. أدر رأسك. أتذكّر أبي وهو يقول: لهذا الولد مخ.
- أعتقد أنك جادلت في ذلك.
- كنت متأثرة. حتى ذلك الحين كنت أعتقد أنّ لدى كلّ شخص مخا، وهذا هو سبب التصاقها بذهني.
- وماذا التصق بذهنك أيضا؟

تساءل مبتسما. فجأة نهضت "نانسي"، ومشت بسرعة قليلا مبتعدة.

- آه، الآن.

وعادت للاقتراب منه:

- هذا ليس عدلا! لقد ظننت أنني كنت فتاة سيئة السلوك.
- أنت لم تكوني كذلك.

قال بعناد:

- سأتناول مشروبا الآن.

أشاحت بوجهها بعيدا عنه، بينما كانت تصبّ الكأس، لكنه استمرّ:

- هل تظنين أنك كنت الفتاة الصغيرة الوحيدة التي قبّلت؟

- هل يعجبك الموضوع؟

تساءلت. ذاب ترددها اللحظي، وقالت:

- يا له من جحيم! لقد تمتعنا كما جاء بالأغنية.

- بركوب مركبة جليد؟

- نعم.. ونزهة شخص ما.. "ترودي جيمس" في فرونتاك، خلال أوقات الصيف.

تذكّر أنه غالبًا ما كان يفضل ركوب مركبة جليد، وتقبيل وجنتيها الباردتين في القشّ في أحد الأركان، بينما كانت تضحك لمرأى النجوم الباردة البيضاء، وقد أدار الثنائي المجاور لهما ظهريهما، فقبل رقبتها الصغيرة وأذنيها ولم يقبل شفتيها أبدا.

قال:

- وفي حفلة آل"ماك" لعبوا لعبة مكتب البريد، لكني لم أستطع الذهاب، لأنني كنت مكتئبا.

- لا أتذكر ذلك.

- أوه، كنت هناك. وتمّ تقبيلك، وكنت مجنونا بالغيرة كما لم أكن من قبل أبدا.

- غريب.. إنني لا أتذكّر. ربّما أردت أن أنسى.

- لكن لماذا؟

تساءل مندهشا:

- كنا صبيّين بريئين تماما. "نانسي"، كنت كلما تحدثت إلى زوجتي حول الماضي أخبرها أنك كنت الفتاة الوحيدة التي أحببتها تقريبا كما أحبّها. لكني أعتقد حقيقة أنني أحببتك أكثر، وحينما انتقلنا من المدينة حملتك كقذيفة مدفع بداخلي.
- هل كنت مشحونا دائما هكذا؟
- يا إلهي، نعم! أنا...

فجأة تبيّن أنهما يقفان، كلّ على بعد قدمين من الآخر، لدرجة أنّه كان يتكلم كما لو كان يحبها في الحاضر، وهي تتطلع إليه بشفتين نصف منفرجتين، ونظرة عابسة في عينيها.

قالت:

- استمرّ. أنا خجلة أن أقول.. إنني أحبّ ذلك. لم أكن أعرف عندئذ أنك كنت متضايقا. كنت أعتقد أنني وحدي المتضايقة.
- أنت!

تعجب:

- ألا تذكرين أنك تخليت عني في الصيدلية؟

ضحك:

- لقد أخرجت لسانك لي.
- لا أتذكّر ذلك إطلاقا. يبدو لي أنك من قام بالتخلي.

سقطت يدها برقة على ذراعه مواسية:

- لديّ ألبوم صور بالأعلى لم أنظر إليه منذ سنوات، سأحضره.

جلس "دونالد" لمدّة خمس دقائق مع فكرتين: الأولى الاستحالة اليائسة للتوفيق بين تذكّر عدة أفراد مختلفين لنفس الواقعة، والثانية تلك الطريقة البغيضة التي تقوده بها "نانسي" كامرأة كما سبق أن قادته كطفلة، بعد أن طوّرت خلال نصف ساعة عاطفة لم يعرفها منذ موت زوجته، تلك العاطفة التي أمل ألا يعرفها أبدا مرّة أخرى.

فتحا ألبوم الصور بينهما وهما على أريكة جنبا إلى جنب. نظرت إليه "نانسي" مبتسمة وسعيدة جدا. قالت:

- أوه، يا لها من متعة. مثل هذه المتعة في أن تكون رقيقا معي لدرجة أن تتذكرني بهذا الجمال. دعني أخبرك، كم كنت آمل لو عرفت ذلك حينذاك! فبعد أن ذهبت كرهتك.

قال بلطف:

- يا للحسرة!

أعادت التأكيد له:

- لكن ليس الآن.

ثم بتهوّر:

- التقبيل والغزل..

- لن تكون تلك زوجة صالحة.

قالت بعد دقيقة:

- **حقيقة، لا أتذكر أنني قبلت رجلين منذ أن تزوّجت.**

كان مستثارا، وفوق كل شيء كان مشتتا. هل قبل نانسي؟ أم هي مجرّد ذكرى؟ أم هو هذا الغريب المحبوب المرتعش الذي انصرف عنها بسرعة؟

وبعد أن قلب صفحة من الألبوم، قال:

- **انتظري! أنا لا أعتقد أنني أستطيع أن أرى صورة لعدّة ثوان.**

- **لن نفعل ذلك ثانية، فأنا نفسي لا أشعر أنني هادئة جدا هكذا.**

عندئذ تذكّر "دونالد" واحدا من تلك الأشياء المبتذلة الشائعة الانتشار:

- **هل يكون مؤلما لو وقعنا ثانية في الحب؟**

- **أوقف ذلك!**

ضحكت، مبهورة الأنفاس:

- **لقد انتهى كلّ شيء. كان ذلك لدقيقة. دقيقة يستوجب عليّ أن أنساها.**

- **لا تخبري زوجك.**

- **لم لا؟ إنني أخبره عادة بكلّ شيء.**

- **لأنّ هذا سيؤذيه. لا تخبري رجلا أبدا بمثل هذه الأشياء.**

- **حسنا، لن أفعل.**

- **قبليني مرّة أخرى.**

قال متناقضا مع نفسه، لكن "نانسي" قلبت الصفحة، ثم أشارت إلى صورة:

- **أنت هنا...**

صاحت:

- **مختلف تماما.**

نظر إلى الصورة، رأى ولدا في بنطلون قصير واقفا على رصيف ممتد داخل البحر مع قارب بحري في الخلفية.

- **أتذكّر..**

ضحكت بانتصار:

- **لقد حدث ذلك في اليوم ذاته، حين أخذته كيتي، وأنا سرقته منها.**

فشل "دونالد" لوهلة في أن يتعرّف على نفسه في الصورة الفوتوغرافية. ثم اقترب أكثر، لكنه فشل كليّة في أن يتعرّف على نفسه. قال:

- **هذا ليس أنا.**
- **أوه، نعم. كان ذلك في فرونتاك، كنّا في الصيف، وقد اعتدنا أن نذهب إلى الكهف.**
- **أيّ كهف؟ كنت في فرونتاك لمدّة ثلاثة أيام فقط.**

ركّز عينيه مرة ثانية على الصورة الباهتة الصفراء:

- **هذا ليس أنا. إنه "دونالد بوورز"، لقد كنا متشابهين.**

كانت تحملق فيه الآن، منحنية إلى الوراء، بادية أنها تنفلت منه:

- **لكنك "دونالد بوورز"!.**

تعجبت، ثم ارتفع صوتها قليلا:

- ولكن لا، إنك لست كذلك. أنت "دونالد بلانت".

- لقد أخبرتك في التليفون.

وقفت على قدميها بوجه شاحب مرتعب:

- بلانت! بوورز! لا بد أن أكون مجنونة، أو أن ذلك الشراب هو السبب؟ لقد اختلط الأمر عليّ قليلا عندما رأيتك أولا. انظر إليّ! بماذا أخبرتك؟

جرّب "دونالد" هدوء القرود، وهو يقلب صفحة الألبوم:

- لا شيء على الإطلاق.

قال بينما كانت الصور التي تشمله تتشكّل أمام عينيه، ثم تتشكل ثانية.. فرونتاك.. كهف.. "دونالد بوورز"..

- لقد تخليت عنّي.

تحدّثت نانسي من الجانب الآخر للغرفة. قالت:

- لن تحكي أبدا هذه القصة. للقصص طريقها في الانتشار.

- لا توجد هناك أية قصة.

تردد، لكنه فكّر.. "لقد كانت بنتا صغيرة سيئة".

والآن، فجأة كان ممتلئا بغيرة غاضبة متوحّشة من "دونالد بوورز".. هو الذي نفاه من حياته غيورا إلى الأبد. وخلال الخطوات الخمس التي عبر فيها الغرفة أسقط عشرين عاما، كما امتص وجود "والتر جيفورد".

- قبليني ثانية يا "نانسي".

قال هابطا على إحدى ركبتيه بجوار كرسيها، واضعا يده على ظهرها، لكنها ابتعدت متوترة.

- لقد قلت إنّ عليك أن تلحق بطائرة.
- إنّها لا شيء. يمكن أن أفقدها. إنها ليست بذات أهمية.
- اذهب من فضلك.

قالت بصوت بارد:

- أرجو أن تحاول أن تتخيّل كيف أشعر.
- لكنك بدوت كما لو كنت لم تتذكريني.

هاج:

- كما لو كنت لا تتذكرين "دونالد بلانت"!.
- أتذكّرك. أتذكّرك أنت أيضا.. لكن كان كلّ ذلك منذ زمن طويل.

تصلب صوتها ثانية:

- رقم استدعاء سيارة الأجرة هو كر ستوود 8484.



حرّك "دونالد" رأسه من جانب إلى آخر، وهو في طريقه إلى المطار. كان قد استعاد الآن نفسه تماما، لكنه لم يستطع تأمّل التجربة. فقط بينما كانت الطائرة تحلق في السماء المظلمة وأصبح للمسافرين وجود مختلف عن العالم المناظر بأسفل، عندئذ انتقل متوازيا مع حقيقة رحلة الطيران، وعاش كمجنون لمدّة خمس دقائق عمياء في عالمين مرّة واحدة، كان ولدا في الثانية عشرة ورجلا في الثانية والثلاثين، في مزيج عاجز لا فكاك منه.

لقد فقد "دونالد" فرصة عظيمة، أيضا، في تلك الساعات بين الطائرتين. ولكن طالما أنّ النصف الثاني من الحياة سيكون عملية طويلة للتخلص من أشياء، فإنّ ذلك الجزء من الخبرة من المحتمل ألا يكون هاما.

صغار ملاك الأرض

قالت "إيفراسيا" لزوجها "خواكين" ذات ليلة، بعد وقت قصير من بدء العشاء:

- أنت تعرف أنني ميّالة للاشتباه بأنّ جارنا في البيت المجاور يسرق مواد من الساذج المسكين الذي يبني بيتا لـ...

نظر "خواكين" إليها بعينه الزجاجية، مستنكرا:

- كيف تعرفين؟

- لأنه رجع هذا المساء بعربة ممتلئة بفضالة القرميد، ومغطّاة بأكياس لإخفائها.

- لا يمكن أن يحدث هذا.

- وكان يحمل بالأمس أيضا بعض البلاط تحت ذراعه، ملفوفًا بكيس ممزّق يمكّنك أن ترى الحواف.

- حسنا.. من يعلم!

- لقد لاحظت هذه الأشياء مع عمله قبل الأخير أيضا. في البداية، كان يعود في عربته إلى البيت مبكرا. ولكن بعد ذلك، وعندما يقترب العمل من

الانتهاء، يعود متأخرا بالليل، مع عربته دائما مغطاة. ينبغي أن يكون قد استخدم هذه المواد لبناء مأوى جديد.

أدلى "خواكين"، مالك الأرض الصغير، بردّ قليل الكلمات:

- لكن بطبيعة الحال، إنّ القيام به بتلك الطريقة يجعل من السهل إنهاء أعمال، وبناء مآوٍ خيالية تثير غيرة الآخرين.

ثم توقفا عن الكلام. تعشيا في صمت. ظلت عين "خواكين" السليمة ثابتة كما الأخرى الزجاجية.

ذات مرّة قالت "إيفراسيا" بصوت بدا غريبا، حاولت أن يكون طبيعيا حين كانت تطفئ المصباح وهي في الفراش، متفادية وجه زوجها:

- إذا اكتشف صاحب البيت ذلك ..

- لكان قبض عليه..

كان ذلك هو التعليق الوحيد من الرجل ذي العين الواحدة، ثم دسّا نفسيهما في الفراش، ولم يتكلما بعد ذلك.

كان الجاران يكرهان بعضهما باستياء صادق مكتوم.

صعدت هذه الأفكار الفاسدة إلى رأسيهما بواسطة عدّة رغبات غامضة بينهما في التحقير، لوّنت عداءهما بطبقة برّاقة من المصائب المتباينة التي يتمناها كلّ فرد للآخر.

كانت أمنية "كوزمي"، البنّاء، لا أقل من أن تصيب كارثة مفاجئة "خواكين" وممتلكاته. إذا عنّ لشخص أن يسأله عن نوع الكارثة التي يتمناها لجاره، فلن يكون قادرا على التحديد، لأنّه لا يستطيع التفكير أبعد من الحالات الاستثنائية في الموت. عذبه الافتقار إلى الخيال بنوبات غضب راعدة، ولكن باختصار، كان متأكدا من أن رغبته لو تحققت، سيكون سعيدا أخيرا.

على الجانب الآخر جسّد خواكين رغبته.

أراد أن يدمّر البنّاء.

حصل كلّ من مالكي الأرض على ملكيتهما بخطط تقسيط في نفس الوقت تقريبا. يتخيّل "خواكين" عدم قدرة جاره على دفع القسط الشهري على ممتلكاته، وإذا بإشعار بسيط حول التصفية، ويرفرف علم أحمر على حديقة "كوزمي"، سيكون ذلك كافيا ليغرس فيه فرحة شريرة. لذلك فهو يكمن منتظرا، صارّا بأسنانه، ساطعة عينه الزجاجية – سطوعا أكثر كثافة من الأخرى – تحت غطاء رقيق من تجعّد دائم.

يمكن أن يعزى مصدر كراهيتهما إلى فعلين اثنين.

حين اشترى خواكين حصته من الأرض، كلف "كوزمي" بتقدير لبيت خطط لبنائه عليها. منطقيا، أسند العمل بعد ذلك إلى مقاول آخر.

مع ذلك، وطالما أنّه احتاج إلى مشاركة جدار مشترك مع جاره، فقد ثمّن "كوزمي" الغاضب استخدام الحائط بأعلى من تكلفته الطبيعية، ورفض "خواكين"، طاحنا أسنانه، أن يدفع. ذات صباح، عندما كان المقاول بعيدا،

وضع حزم بناء سقف جديد، يتماسك احتياطيا بدعامات. وعندما عاد "كوزمي"، كان الوقت متأخرا لوقف البناء.

الآن، كانت تكلفة التقاضي لعرض هذه القضية على المحكمة تفوق بكثير أيّ تعويض للجدار، وهو ما أغضب البنّاء، الذي شعر أنّه مضطر لتدمير "خواكين". انتهى الأمر أمام قاضي الصلح، وغالبا ما تردد "كوزمي"، على مدى عام ونصف العام، على عديد من غرف قذرة محشوّة بموظفين وقحين لا يحتملون. واطلع على جميع حيل المدينين البارعة وهم يتجنبون الدفع، وبحث لأشهر عديدة من خلال كينونة النظم المعقدة، كيف يمكن بواسطتها اغتيال جاره. ولكن نظرا لكونه نوعا متخلفا، لم يحدث له شيء. وأخيرا، بينما كان يفقد الثقة في عدالة دنيوية فاز.

نمت كراهيتهما مع مرور الزمن، لكن دون لهفة وحشية كما في السنة الأولى. كانا الآن بصدد أخذ راحة، وقد اشتد استياؤهما في الظلّ، وقطر داخل روحي المالكين عصيرًا فاسدًا سمّن نخاع عظميهما، مرسيا مشاريع شرسة وسرورا حذرا مظلما؛ الشعور بأنّه ذات يوم سيكون على الآخر المضي إلى الدفع.

جاء الحدث السيئ الأول إلى جانب البنّاء.

بنى "خواكين" غرفة صغيرة دون عرض الخطط على البلدية، لكن الأسوأ من ذلك، هو فشله في وضع أساسها طبقا للتعليمات الواردة في الملخص.

أصبح "كوزمي" مهتمّا بالاطلاع على هذه المعلومات أثناء الدردشة مع أحد عمال "خواكين" حول الركن في حانة في السوق، وتقدّم إلى جعل هذه المخالفة الخطيرة معروفة لمفتش بلديّة المنطقة المعنيّة.

عندما وصل المفتش، وقّع على "خواكين" غرامة شديدة، وإذا لم يكن ذلك كافيا، فقد شوهد المفتش يحطم أرضية غابة صنوبره الرائع، لبحث مدى المخالفة.

سالت في ذلك اليوم دمعة واحدة من عين خواكين المزججة للعيان، في نفس الوقت الذي وبّخته فيه زوجته من المطبخ، مقللة من قيمة شخصه بسبب تردده في السعي إلى المواجهة مع البنّاء، وأخيرا، غمر نفسه في فراشه ليلا، مكبّلا، وهو يتمتم بعبارات متجهّمة.

بعد مضي ستة أشهر، اشترى البناء حصانا وعربة لنقل المواد من وإلى مواقع عمله. لكن بسبب الإهمال فشل في أن يبني حظيرة تتفق مع المبادئ التوجيهية الواردة في كتاب البلدية. استخدم "خواكين" ذريعة العمل على صيانة سقفه ليتمكن من العبور إلى جاره، حيث يمكن إجراء دراسة أفضل للبديل المؤقت للحظيرة. أرسل إشعارا إلى المفتش. وذات يوم جميل، اندهش البنّاء من أن يجد غرامة مثبتة بمسمار على باب حظيرته، تماما مثلما وجد أمرا لبناء حظيرة جديدة، شأنها في نهاية المطاف أن تكلّفه أكثر من الحصان والعربة.

لكن نجاح طعنات المال هذه، المشربة بالقانون، فشل في إخماد كراهيتهما.

لم يكن "خواكين" بقادر على النظر إلى "كوزمي" دون أن يرتجف من الغضب. أصابه ظهور "كوزمي" الخشن باشمئزاز حقيقي، لأنّ البنّاء كان قصيرا، مفتول العضلات، عريض المنكبين، ويحمل وجهه سريع الانفعال دائما نفس العينين الخضراوين المبتسمتين الوقحتين. كان صوته قد تشوّه، فهو يسيء استخدام نطق "جي". وعندما كان "خواكين" يسمعها، كان يرتعش إلى درجة شعوره شخصيا بالضيق، وبالرغم من ذلك ما زال يتحدث كلّ منهما مع الآخر.

وفي بعض الأحيان تكون لهما حوارات خيّرة، وديّة. قد يكون الموضوع هو التكاليف الباهظة للطوب، أو أيّ شيء آخر.

قد يقول "خواكين" الذي يحتاج إلى شراء ألف طوبة للشتاء القادم:

- يقولون إنهم سيرفعون السعر إلى أربعين لكلّ ألف.

- بل أزيد، إلى خمسة وأربعين.

- لكن تلك فضيحة! كما تعرف، فإنّ تلك زيادة قدرها عشرة في الألف!

وهكذا، بسبب هذه الدولارات الخمسة، التي يتعيّن عليه أن يدفعها في غضون أربعة أشهر، كان يقدّم احتجاجات الواحد تلو الآخر على بلدهم والقوانين، وقد وجد تضامنا في الخزي المتبادل الناجم عن تكلفة مواد البناء.

لقد شعر كلاهما بالرضا لكونهما فقيرين، ولا يشبهان بعض أقرانهما. وبدلا من إخفاء ذلك العيب بعيدا، كانا يعرضان بكلّ فخر حالتهما المالية، كما لو كانت فضيلة، مبتهجين بطمعهما الخاص.

وعند مناقشة مآسيها، فإن "خواكين"، الذي كان أكثر عقلانية ورومانسية من "كوزمي"، يشبّه نفسه بمالك دير في "لويولا" - مشددا على التغنّي بهذه الطريقة للحياة - ممتلئا بآمال أن يصبح ذات يوم صاحب ممتلكات ببطن ضخم، يبقي جرادل التربة الرومانية بجوار الباب ليصلح تقسيماته المبنية من اللبن.

الشيء الوحيد الذي كان يلوم نفسه عليه، هو عدم كونه لاذعًا أكثر.

وعلى الرغم من إظهار المودّة عندما يتحدّث "خواكين" مع "كوزمي"، فقد بدأ يلاحظ حضور روح بلا حراك مستقرّة في قزحتي البنّاء الخضراوين، ليصبحا ثقيلتين كوحشين مصنوعين من لحم خام، وهو ما يبلد حساسيته، ويحدده في ابتسامة خجولة عند الردّ على محادثة "كوزمي" الجافة.

وهو لا يجادل البنّاء، بل يوافقه بصفة عامة مهما قال، وقد تثور كلّ أعصابه في نفس الوقت، في تناقض صامت يحتشد بداخله، والذي قد يتخذ، بعد عدّة أيام، شكل طفح قرمزي على جلده مثل ندبة، مثل بشرة مشوّهة نتجت من حرق متقيّح. تحرّكت أفكاره، مقارنة بعلقات في عالم مشوّش، نزّاع إلى القتال.

من ناحية أخرى، قد يتخيّل البنّاء نفسه مانحا "خواكين" وخزة يسارية بخنجر. قد تحدث عند ركن موحش من منزله، وسط كلّ النفايات الموجودة على امتداد الممر القذر، حيث يضيء مصباح نفطي، بتوهّج أصفر دائرة من الأرض. من شأن "كوزمي" أن يفاجئ الرجل ذا العين الواحدة أثناء مروره.

بينما مضت تخيّلاته دون أن تتحقق، فإنّه قد يشوّه سمعة بيت جاره بأفضل ما يستطيع. لذلك عندما أراد "خواكين" بيع بيته، وجاء مشترٍ محتمل لزيارته، فإنّ "كوزمي" الذي سمع المحادثة من تحت الحائط المنخفض في الفناء الخلفي تتبّع الغريب، وعند انصراف "خواكين" فاتحه في الأمر، مقنعا إيّاه بأنّ البيت قد بني من مواد بناء رديئة، وهو ما لم يكن في الواقع صحيحا.

علاوة على ذلك، فإنّ هذه الكراهية بينهما قد روعيت، وخصّبت، ومثل أوتار كمان صنعت توترا بسبب زوجتيهما المحترمتين. تمنّى كلّ للآخر فظائع وآلاما، رغم أن ذلك لم يمنعهما من تبادل ابتسامات مصطنعة في محادثاتهما، وقد أعارا نفسيهما لتملقات كاذبة عبر بنود لا يستهان بها، مكرّسة لتحيات بوجوه عسلية، وتعبيرات مبالغ فيها "نعم، سيدتي، ولا، ميسي"، لأنّ زوجة "خواكين"، التي ترتدي قبعة وجوارب من حرير، كانت "سيدة" بالنسبة للأخرى، التي ارتدت بشكل عملي روب حمام في كلّ مكان، دون أن تقصّ شعرها أبدا. وبينما تراقبان كيف قسّمت ممتلكاتهما بسياج من السلك، كانتا تتبادلان أحاديثهما في وقت متأخّر من بعد الظهر، باحثتين كلّ عن الأخرى رغم نفسيتيهما أثناء الذهاب إلى الحديقة لقصّ الورود التي تعاني من النمل، أو لتسأل أيّ منهما الأخرى عن الوقت، فإنّ مثل هذه الدوافع، التي من شأنها أن تصل ما لا ينضب من محادثات، كان من شأنها أن تجعل حياة زوجة مورد الفحم نقشا متألقا على حجر كريم، أو إمكانية وجود انتقال جديد في الشارع التالي، فتمنح كلّ للأخرى مشورة اهتمام محكم بالكمبوت، وبسبل نباتات الإجاص المجففة.



كانت هذه الحوارات على العكس تماما، من تلك التي تجري بين الرجلين، وكانت كلتاهما، مثل زوجة "كوزمي"، التي كانت دائما على صواب. بل إنّها كانت تحاكي أيضا طريقة كلام السيدة "إيفراسيا"، محتشدة بابتسامات، وهي تثني قمة شفتيها نحو العين اليسرى، مع كلمة "سيدتي" في الوقت ذاته، وأيضا تومئ برأسها بالمثل في إشارة على الفهم، إشارة كانت لفتة مميّزة من شخصية من الأميّات اللاتي تعتمدن هذا النشيج اللاإرادي لتفادي أن يبدون جاهلات. كانت مثل هذه الحركات واضحة الجمع بين الفهم والتساهل، وتلك هي شروط ذكاء ارتقى إلى الذروة. كانَ ذلك الاكتشاف، وإن يكن غير مقصود، إلا أنّ زوجة البنّاء قد تستفيد من أيّ تماثل بارع.

هذه الكراهية التي لن تسجّل أبدا على وجهيهما، هذا المقت الحميم الذي يفرّق بينهما، مشبّعا حواراتهما بجاذبية مرضية، دون أن تعرفا ذلك، حين تتحدث إحداهما إلى الأخرى، فإنهما تتخذان جانبا مثل هذه المخلوقات، التي خوفا من الهاوية لا تقترب أبدا مجرّد بوصة واحدة لتسترق نظرة من علياء النوافذ.

الآن لم يستطع خواكين النوم.

فجأة أصابه الانزعاج. كان هذا غريبا. عبرت دفقة من الوقت بين أعصابه، لدرجة أن دمه اندفع دقائق من الهيجان، متدفقا بشكل أسرع، محوّلا أنفاسه إلى لهاث.

فجأة، تحوّلت حياته. لماذا لم تنظر إليه زوجته قبل ذهابها إلى الفراش؟

الآن تذكّر، كان هناك شيء غريب في لهجتها وصوتها، يتذكّره، كإشارة إلى أنّ ما يجري غير طبيعي بالرغبة في وجود فكرة معبّرة عمّا يبدو كنتيجة طبيعية للموقف.

وعلى الرغم من قلقه الشديد، رفض أن يتحرّك.

لم يأخذ الزمن مجراه في الظلّ، بل طاف بعيدا عن مركز القلق والترقب، وشعر أنه يرى نصف طول جسده قد وزن أكثر من النصف الآخر، ويرجع ذلك إلى الانحراف المفاجئ لإدراكه.

لم يجرؤ على إلقاء نظرة خاطفة على أفكاره الخاصة، لأنّه شعر إذا رفع رأسه، فسوف تشقّ طريقها تماما إلى وجهه.

ثم استدار بعينه إلى أعلى خلال الفجوات بين مصاريع النوافذ، ملاحظًا أنّ الأسطوانة الصفراء قد تذبذبت للأسف في غلاف فانوس الكريستال، فأدرك أنّ الريح تهبّ بالخارج في الشارع.

لكنه لم يتحرّك. ظلّ ساكنا حتى أنّ صوت زوجته جاء فجأة كصدمة، وهي تسأل:

- ما هي حكايتك؟ لماذا لم تنم؟

وعند منتصف الليل وجد نفسه أكثر يقظة.

ثقل مثل هذا الصمت على مكعّب الحجرة المظلم، لدرجة أن بدت دمدمات فاترة لأشباح تحرّر نفسها من الجدران، وكان هناك شيء من الرعب في ذلك الموقف.

كان لديه انطباع أن جسم زوجته يرقد هناك إلى جانبه على الوسادة، لكنّه لم يستطع التعرّف عليها، لأنّه لم يبقَ شيء من مظهرها. الشيء الوحيد الذي حافظت عليه على مدار اليوم، هو صورة نحيلة، ذات أنف متطلّع، وتحديقة جبانة رهيبة، عبرت لحمه، ودمغت وعيه آمرة بشكل رهيب.

كانت هذه الدعوة الحقودة من القوّة، لدرجة أن انقذف، وأوى إلى الفراش، ومع مرور الوقت قد تسأله بلهجة سلسة:

- ماذا يحدث؟ لماذا لا تنام؟

ولم يستطع النوم.

كانا يرتكزان على ثقل نفس الرغبة، رؤية متطابقة للكوارث التي يمكن أن يطلق عنانها على البنّاء. صورة "كوزمي" تندفع أمام أعينهما، ناتئة في عزلة شارعهما الضيّق، منحنيا فوق مقعد عربته، بشعر متشابك على وجهه، وعينين خضراوين، مبتعدا بالحمولة الحمراء من الطوب المترب.

أو قد يريان شيئا آخر: رقيب شرطة عند وصوله في المساء، طارقا على باب بيت "كوزمي"، وسريعا بما فيه الكفاية قد يسمعان من مكان اختبائهما تحت النافذة، التي تواجه الحديقة:

- يا سيدتي .. إن زوجك قيد الاعتقال للسرقة!

تثقب صرخة مروّعة أسماعهما، وتسقط المرأة عرجاء على أرضية الفناء، ويهرولان في نفس الوقت باهتمام، ليصلا، ويسألا:

- ماذا حدث؟ ما الخطأ؟

لم يستطع "خواكين" تحمّل الفكرة أكثر من ذلك، فقال بصوت عالٍ:

- لا، إنهم لن يدينوه لذلك.

- لكن، لماذا؟

ترك ذراعه تسقط على وسادة زوجته، وهو يقول:

- سيحكم عليه بسنتين في السجن.. لكن الأمر سوف يكون مشروطا، أغلب ما سيحصل عليه هو وقوعه في ورطة.

- إني أفهم.

- أنا سعيد. أنت عقلانية على الرغم منك. هذا صحيح.. أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يستردوا منزله.

- من؟

- مالك العمل الآخر.. كتعويض عن الخسائر والأضرار.

تحوّل الزوجان إلى الرضا في صمت، متخيّلين رؤية قضائية شريرة لبعد ظهر يوم أحد، في شارعهما الضيّق ممتلئا بملاك منازل صادقين، مستثارين بحكم محكمة بالمزاد. يا له من عيد للجيرة القاسية!

شاهد العلم الأحمر يخفق من الجبهة الأمامية، بينما هما واثقان من نفسيهما، معززين بواسطة "منزلهما الصحيح"، متبادلين ملاحظات مع مورد الفحم، والجزار حول مزايا أن تكون شريفا، والمحن التي تكبّداها عندما اختار فرد "أن يلوّث يديه من أجل أجر زهيد".

أضاف "خواكين" مستمتعا بهذه العبارات:

- لا أحد يحبّ أن يدفع.. وسيجد مالك العمل أنّ من المفيد أن يرمي "كوزمي" في السجن لسرقته، حتى لا يتعيّن عليه أن يدفع له الأموال، التي ما زال مدينا بها..

- لكن مقابل هذا الأجر الزهيد؟

ردّ "خواكين" بسخط:

- أجر زهيد؟ أنت مجنونة! في يوم آخر اعتقلوا نجارا سرق كسوة خشبية، وحزم مسامير من مكان العمل. إلى أين سينتهي بنا المآل إذا فعل كلّ شخص ما يشاء؟ يتعيّن علينا أن نكون محترمين بأيّ حال من الأحوال!

- نعم، ضمائر نظيفة.. لكن ماذا ستفعل؟

- غدا، سأكتشف أين يقع مكان العمل... وعنوان المالك..

- إنك لن تكتب إليه، أليس كذلك؟

- نعم، لكنني سأجعل المكتوب على آلة كاتبة من مجهول.

- سوف تعمل امرأته المنافقة بطريقة غير متوقعة! أنصت إليّ. أمس، تحت ذريعة أن تعرض عليّ تمثالا راحت تقول لي: "أوه، ألا تعرفين؟ حين ينهي زوجي عمله الأخير، سنقوم بوضع ستائر معدنية على كلّ النوافذ". كلّ ذلك، أولا تعرف لماذا؟ فقط لمجرّد أن تثيرني..

- يا لها من حثالة!

- وتظنّ أن على المرء أن يتماشى معها..

- وفّري ذلك.. غدا سنصلح الأمر.

تثاءب "خواكين" للحظة متعبا فعلا، ثم قال:

- سأمضي إلى النوم. إلى الغد يا عزيزتي.

- ألن تمنحني قبلة؟

- ها هي.. نوما طيبا.

علبة ثقاب السلامة

في صباح يوم 6 أكتوبر 1885، في مكتب مفتش شرطة الشعبة الثانية من مقاطعة "س.."، ظهر هناك شاب يرتدي ملابس محترمة، وأعلن أن سيده "ماركوس إيفانوفتش كلاوسوف"، الضابط المتقاعد من سلاح الفرسان، والمنفصل عن زوجته، قد قتل. كان الشاب أثناء قيامه بهذا الإعلان شاحبا وهائجا بشكل رهيب، وقد ارتعشت يداه، وامتلأت عيناه بالخوف.

تساءل المفتش:

- لمن أتشرّف بالحديث؟

- "بسييكوف"، وكيل ملازم "كلاوسوف" الزراعي والميكانيكي!

مضى المفتش ونائبه إلى زيارة مسرح الحدث في صحبة "بسييكوف"، وقد وجدا الآتي: تجمع حشد كثيف من البشر قرب الجناح الذي عاش فيه "كلاوسوف". كانت أخبار القتل قد انتشرت بسرعة البرق خلال الحي والفلاحين بفضل حقيقة أنّ اليوم عطلة، أتاحت لهم أن يهرعوا من جميع القرى المجاورة. كانت هناك ضجّة كبيرة وأحاديث مختلفة. وجوه شاحبة هنا وهناك، ملطخة بدموع سائلة. تمّ العثور على باب غرفة نوم "كلاوسوف" مغلقا، وكان المفتاح بالداخل.

- من الواضح تماما أن الأوغاد قد دخلوا من النافذة!

قال "بسييكوف" ذلك أثناء تفحصهما للباب.

ذهبوا إلى الحديقة التي تفتح عليها غرفة النوم. بدت النافذة مظلمة على نحو ينذر بالسوء. كانت مغطاة بستارة خضراء باهتة، وإحدى زواياها ممزقة قليلا، ممّا جعل من الممكن النظر إلى غرفة النوم.

تساءل المفتش:

- هل تفحّص النافذة أيّ منكما؟
- بالتأكيد يا صاحب النيافة.

أجاب "أفرايم"، البستاني العجوز صاحب الشعر القليل الأشيب، الذي بدا وكأنّه رقيب متقاعد.

- من الذي سيحقق في الأمر إذا كانت كلّ عظامهم تهتز؟!
- آه، "ماركوس إيفانوفتش".. "ماركوس إيفانوفتش"!.

تنهد المفتش، ناظرا إلى النافذة:

- لقد قلت له إنّ الأمر سيؤول إلى نهاية سيئة! لقد أخبرت الرجل العزيز لكنه لم ينصت! وهو ما يعتبر انغماسا في الملذات لا يحقق أيّ خير!

قال "بسييكوف":

- شكرا لـ"أفرايم"، لكن بالنسبة إليه نحن لم نخمن ذلك أبدا. كان أوّل من خمّن أنّ شيئا ما خطأ. حين أتى إليّ هذا الصباح وهو يقول: "لماذا يستغرق

السيد وقتا طويلا لينهض؟ إنه لم يغادر حجرته لأسبوع كامل!" كانت اللحظة التي قال فيها ذلك، كما لو أن شخصا ضربني بفأس، فومضت الفكرة في ذهني: "لم يتح لنا مشاهدته منذ يوم السبت الماضي، واليوم هو الأحد! سبعة أيام كاملة .. لا شكّ فيها!".

- آه يا للزميل المسكين!

تنهد المفتش مرّة أخرى.

- كان زميلا بارعا، متعلما على نحو رائع، ذا قلب طيّب! لا يمكن لأحد أن يمسّه في المجتمع! لكنه كان مبذرا، ليرحم الله روحه! لقد كنت مستعدا لكلّ شيء منذ أن رفض الحياة مع "أولجا بتروفنا". رجل مسكين.. زوجة صالحة، لكنها ذات لسان لاذع يا ستيفن!

استدعى المفتش واحدا من مساعديه:

- امضِ إلى منزلي فورا في هذه اللحظة، وأرسل "آندرو" إلى النقيب كي يجهز المعلومات معه! أخبره أن "ماركوس إيفانوفتش" قد قتل. وادخل إلى الحاجب، لماذا ينبغي أن يجلس هناك راكلا عقبيه؟ دعه يأتي إلى هنا! وامضِ سريعا بقدر ما تستطيع إلى قاضي التحقيق "نيكولاس يرموليفتش". أخبره أن يأتي إلى هنا فورا! انتظر، سأكتب له مذكرة!

عيّن المفتش الحرّاس حول الجناح، وكتب مذكرة إلى قاضي التحقيق، ثم مضى من فوره من أجل كوب شاي.

بعد عشر دقائق، كان يجلس على كرسي يقضم بحرص مكعبا من السكر، ويبتلع الشاي الحارق. راح يقول لـ"بسييكوف":

- ها أنت هنا! ها أنت هنا! نبيل بحكم المولد! رجل غني.. مفضّل لدى الآلهة كما يقال، مثلما عبّر الشاعر "بوشكين"، وما الذي توصّل إليه؟ لقد شرب وانغمس في الملذات.. وها هو هنا.. لقد قتل.

وصل قاضي التحقيق، بعد بضع ساعات. "نيكولاس يرموليفتش تشوبيكوف"، كان ذلك هو اسم قاضي التحقيق، الذي بدا شخصا طويل القامة، سمين البدن، يبلغ الستين من عمره، وكان يتصارع مع واجبات منصبه لمدّة ربع قرن. وقد عرفه الجميع في الحيّ كرجل صادق، حكيم، نشط، محبّ لعمله. صاحبه إلى مسرح جريمة القتل رفيق عامل، وسكرتير، هو "دوكوفسكي"، وهو شاب طويل القامة، في السادسة والعشرين من عمره.

- هل هذا ممكن أيها السادة؟

صاح "تشوبيكوف" داخلا غرفة "بسييكوف"، مصافحا الجميع بسرعة:

- هل هذا ممكن أيها السادة؟ "ماركوس إيفانوفتش" قتل؟ لا هذا مستحيل! مـ.ســ.. تـ.. حيل!

- ادخل إلى هناك!

تنهد المفتش:

- أيها الرب، ارحمنا! لقد رأيته يوم الجمعة الماضي فقط في سوق "فارابانكوف". وتناولت معه الفودكا، كانت تلك علامة!

- ادخل إلى هناك.

تنهد المفتش ثانية.

تنهدا، أتمّا رسم علامات تعجب تعبيرا عن الرعب، وشرب كلّ منهما كوبا من الشاي، وذهبا إلى الجناح:

- تراجعوا إلى الوراء.

صاح الحاجب في الفلاحين.

بدأ قاضي التحقيق عمله، وهمّا في طريقهما إلى الجناح بفحص باب غرفة النوم. ثبت أن الباب من خشب الصنوبر، مدهون بلون أصفر، دون أيّ خدش. لم يوجد أيّ شيء يمكن الاستفادة به كأثر لحلّ اللغز، وكان عليهما أن يكسرا الباب:

- لينصرف كلّ شخص ليس لديه عمل مطلوب هنا!

قال قاضي التحقيق. وبعد عدّة طرقات وضربات، استجاب الباب في النهاية لفأس وإزميل.

- إنني أطالب بهذا من أجل صالح التحقيق.. ألا يدع الحاجب أيّ فرد يدخل!

فتح "تشوبيكوف"، ومساعده، والمفتش الباب. دخل أحدهما وراء الآخر بتردد إلى الحجرة. وقعت عيونهم على المشهد التالي: انتصب إلى جوار النافذة الوحيدة سرير خشبي كبير مع فراش ريشي ضخم. تكوّم على السرير الريشي لحاف متجعّد منقلب. كانت الوسادة القطنية مسحوبة على الأرض وقد تجعدت أيضا. استقرّت ساعة فضية على مائدة إلى جانب السرير،

وقطعة نقد فضيّة ذات عشرين كوبيكا، إلى جوارها علبة عيدان ثقاب كبريت. لم يكن هناك أيّ أثاث آخر في الغرفة إلى جوار السرير، سوى مائدة صغيرة، وكرسي وحيد. نظر المفتش تحت السرير، فرأى بضع عشرات من زجاجات فارغة، وقبعة قديمة من القشّ، وربع جالون فودكا. كما استقرت تحت المائدة فردة حذاء ذي رقبة مغطاة بالغبار. ألقى القاضي نظرة حول الغرفة، فعبس وجهه واحمر:

- الأوغاد!

تمتم، شادا على قبضتيه:

- وأين "ماركوس إيفانوفتش"؟

تساءل "دوكوفسكي" بصوت منخفض.

- اهتم بعملك الخاص!

أجاب "تشوبيكوف" بحدّة.

- كن جيّدا كفاية لتفحص الأرضية. إنها ليست أول حالة من هذا النوع تحتم عليّ أن أتعامل معها منذ "كوزميستش أوجراف".

قال مستديرا إلى المفتش، خافضًا صوته:

- كانت لديّ حالة أخرى مثل هذه في عام 1870. لا بد أنك تتذكرها. كانت مقتل التاجر "بورتريتوف". حدث الأمر هناك بنفس الطريقة. قتله الأوغاد، وسحبوا جثته عبر النافذة.

صعد "تشوبيكوف" إلى النافذة، سحب الستار إلى جانب واحد، ودفعها فانفتحت:

- لقد انفتحت كما ترى! إنها لم تكن مغلقة. هم! هناك آثار تحت النافذة. انظر! هناك أثر ركبة! لقد وصل شخص إلى هناك. ينبغي أن نفحص النافذة بعناية.
- لا يوجد شيء يمكن التوصّل إليه من الأرضية.

قال "دوكوفسكي":

- ليست هناك بقع أو خدوش. كان الشيء الوحيد الذي وجدته علبة ثقاب. ها هي هنا! وبقدر ما أتذكّر فإنّ "ماركوس إيفانوفتش" لا يدخن. ويستخدم دائما أعواد ثقاب كبريتية. ربّما تخدم أعواد الثقاب كأثر يؤدي إلى دليل!
- أوه، هلا خرست!

صاح قاضي التحقيق باستنكار:

- هل ستستطرد في موضوع أعواد ثقابك! لا يمكنني أن أقتنع بهؤلاء الحالمين! بدلا من السعي وراء أعواد ثقاب، فإن من الأفضل أن تفحص!

بعد إجراء فحص شامل للسرير، رفع "دوكوفسكي" تقريره:

- ليست هناك بقع، سواء من دم أو من أيّ شيء آخر، وبالمثل لا توجد هناك أيّ أماكن أخرى ممزقة. على الوسادة آثار أسنان. اللحاف ملوث بشيء

يشبه البيرة، أو له رائحتها. يعطي الشكل العام للسرير أرضية للتفكير أن صراعا جرى عليه.

- أعرف أنه كان هناك صراع، دون أن تخبرني! أنت لم تسأل حول الصراع. وبدلا من البحث عن الصراعات، كان الأفضل...
- هنا، فردة حذاء واحدة من حذاء ذي رقبة، لكن ليست هناك أيّ إشارة حول الأخرى.
- حسنا، وماذا عن ذلك؟
- إنه يثبت أنهم خنقوه أثناء خلعه الحذاء. لم تتح أمامه الفرصة لخلع الفردة الثانية عندما...
- ها أنت تنطلق! وكيف عرفت أنهم خنقوه؟
- هناك آثار أسنان على الوسادة. الوسادة نفسها شديدة الكرمشة، ورميت على بعد من السرير.
- أنصتوا إلى غبائه! من الأفضل أن تأتي إلى الحديقة. لقد جرى استخدامك من أجل فحص الحديقة بدلا من الحفر هنا. يمكنني أن أقوم بذلك دون عون منك!

عندما وصلا إلى الحديقة، بدآ بتفحص العشب. كان قد تمّ سحق العشب ودهسه تحت النافذة. كما ديست شجرة "أرقطيون" نامية تحت النافذة، قريبا من الجدار. نجح "دوكوفسكي" في العثور على بعض أغصان مكسورة وقطعة من قطن صوفي. وقد وجد على الفروع العليا منها بعض شعيرات جميلة من صوف أزرق داكن.

سأل "دوكوفسكي" "بسييكوف":

- ماذا كان لون حلته الأخيرة؟

- صفراء باهتة.

- حسنا، لقد رأيت أنها كانت زرقاء!

قام المحققون بقصف بعض أغصان "الأرقطيون" الشائك، وجرى لفها بعناية. وصل في تلك اللحظة القائد، نقيب الشرطة "أرتسوبياشيف سفيستاكوفسكي" والدكتور "تيوتييف". حيّاهما القائد: **"يوم سعيد!"**، وبدأ العمل على الفور إرضاء لفضوله. كان الطبيب طويل القامة، هزيلا جدا، له عينان شاحبتان، أنف طويل، ذقن محدد. جلس يسجل دون أن يحيي أيّ فرد أو يسأل عن أيّ شيء، ثم تنهد وبدأ:

- الصربيون في الحرب مرّة أخرى! بحقّ السماء، ماذا يريدون الآن؟ النمسا؟ إنّها جميعا من أفعالك!

لم يقدم فحص النافذة من الخارج أي بيانات قاطعة. لكن أسفر فحص العشب والشجيرات الأقرب إلى النافذة عن سلسلة آثار مفيدة. وعلى سبيل المثال، نجح "دوكوفسكي" في اكتشاف خط طويل قاتم يتكون من بقع على العشب، قاد بعد مسافة إلى وسط الحديقة. وانتهى الخطّ الرفيع تحت إحدى شجيرات أزهار الليلاك في بقعة بنيّة قاتمة. وقد وجد تحت نفس شجرة الليلاك فردة الحذاء ذي الرقبة، التي كانت مكملة لتلك الأخرى التي وجدت في غرفة النوم.

- تلك بقعة دم تخثرت منذ بعض الوقت.

قال "دوكوفسكي" وهو يتفحص الموضع.

نهض الطبيب عند سماع كلمة "دم"، ومضى متكاسلا، ناظرا إلى نفس الموضع:

- نعم، إنه دم.

تمتم.

- إذا كانت هناك دماء، فهذا يبيّن أنه لم يخنق.

قال "تشوبيكوف"، ناظرا بسخرية إلى "دوكوفسكي":

- لقد خنقوه في غرفة النوم، وهنا، خوفا من أن يعود ثانية. ضربوه بآلة حادة. بقعة الدم تحت الشجيرة تثبت أنه رقد هناك فترة معتبرة، بينما كانوا يتداولون في طريقة حمله إلى الحديقة.

- حسنا، وماذا عن فردة حذاء الرقبة؟

- يؤكّد الحذاء فكرتي تماما في أنهم قتلوه أثناء خلع حذائه قبل الذهاب إلى الفراش. كان قد خلع واحدة فقط، وخلعت الفردة الأخرى من تلقاء نفسها أثناء سحبه وإسقاطه..

- ذلك خيال خصب منك!

ضحك "تشوبيكوف":

- إنه يستمرّ قائلا كذا وكذا مثل ذلك! متى سوف تتعلم ما يكفي لإسقاط استنتاجاتك؟ بدلا من الجدل والاستدلال سيكون من الأفضل كثيرا لو أنك أخذت بعض الحشائش الملطخة بالدم وحللتها!

عندما انتهوا من فحوصاتهم، ورسموا خطة الشأن المحلي، ذهب المحققون إلى مكتب القائد كي يقدموا تقريرهم، ويتناولوا إفطارهم. مضوا في حديثهم، أثناء تناول إفطارهم. بدأ "بسبيكلوف" مفتتحا الحديث:

- لم يمسّ الأنذال أيًا من الساعة والنقود وما شابه ذلك.

- إنّ هذا يظهر بوضوح أنّ اثنين زائد اثنين يساوي أربعة، وهو أنّ القتل لم يرتكب بغرض السرقة.

أصرّ "دوكوفسكي":

- لقد ارتكب السرقة رجل متعلم!

- ما دليلك على ذلك؟

- تبرهن عليه علبة الثقاب، ذلك لأنّ الفلاحين في الجوار غير معتادين على الثقاب. ملاك الأرض هم فقط من يستعملونه، دون أيّ وسائل أخرى. وهو دليل على أنّه لم يكن هناك قاتل واحد بل على الأقلّ ثلاثة. كتفه اثنان، وقتله الثالث. كان "كلاوسوف" قويا، ولا بد أنّ القتلة كانوا يعرفون ذلك!

- بماذا تفيده قوته عندما يكون نائما!

- لقد جاء القتلة عندما كان يخلع حذاءه. وإذا كان يخلع حذاءه، فهذا يثبت أنه لم يكن نائما!

- توقف عن ابتكار استنتاجات! من الأفضل أن تأكل!

- في رأيي، يا صاحب النيافة..

قال البستاني "أفرايم"، وهو يضع الساموفار على المائدة:

- لم يقم بذلك أيّ فرد، بل هو "نيكولاس" نفسه هو الذي قام بهذه الحيلة القذرة!

- ممكن تماما!

قال "بسييكوف":

- ومن هو "نيكولاس"؟

- إنه خادم خاص للسيد يا صاحب النيافة.

أجاب "أفرايم".

- من هو الآخر الذي يمكن أن يكون؟ إنه نذل يا صاحب النيافة! وهو سكير، حارس أسود، يشبه من لا تسمح بهم السماء! إنه يأخذ الفودكا دائما للسيّد، ويضع السيّد في الفراش. أيّ شخص آخر يمكنه أن يفعل ذلك؟ وأجرؤ أيضا على أن أشير إلى أنه تباهى مرّة في حانة بأنه قد يقتل السيد! حدث هذا بسبب "أكوالينا"، المرأة، كما تعرف. كان يغازل أرملة جندي. لقد أمتعت السيد، وأقام السيد علاقة معها بنفسه، وبطبيعة الحال أصبح "نيكولاس" مجنونا! إنّه يتدحرج مخمورا في المطبخ الآن. يبكي، يحكي أكاذيب، يقول إنه يأسف من أجل السيّد..

أمر قاضي التحقيق أن يمثل "نيكولاس" أمامه. كان شابا طويلا، هزيلا، له أنف طويل منمش، صدر ضيق، يرتدي سترة قديمة للسيّد. دخل

إلى غرفة "بسيبكوف"، وانحنى أمام قاضي التحقيق. كان وجهه بادي النعاس، به بقايا دموع. كان سكرانا لا يستطيع الحفاظ على توازن ساقيه.

سأله "تشيبكوف":

- أين سيّدك؟
- قتل، يا صاحب النيافة!

بينما كان يقول ذلك ومضت عينا "نيكولاس"، وبدأ يبكي.

- نحن نعرف أنه قتل. لكن أين هو الآن؟ أين هي جثته؟
- يقولون إنه سحب من النافذة، ودفن في الحديقة!
- حسنا، إن نتائج التحقيق معروفة في المطبخ، بالفعل! ذلك أمر سيئ! أين كنت يا رفيقي الطيب في الليلة التي قتل فيها السيد؟ ليلة السبت تلك.

رفع "نيكولاس" رأسه، امتدّ عنقه، وبدأ يفكر:

- لا أعرف، يا صاحب النيافة.

قال، ثم استطرد:

- كنت في حالة سكر، ولا أستطيع التذكّر.
- مجرد ذريعة!

همس "دوكوفسكي" مبتسما، وهو يفرك يديه:

- إذا، ما السبب في وجود دماء تحت نافذة السيد؟

هز "نيكولاس" رأسه، وأمعن النظر.

- أجب بسرعة!

قال نقيب الشرطة.

- سأجيب حالا! إن الدم لا يعني أيّ شيء يا صاحب النيافة. كنت أقطع حلق دجاجة. كنت أفعل ذلك بكل بساطة، بالطريقة المعتادة، عندما أفلتت وبدأت تجري. ذلك هو سبب وجود الدم.

أعلن "أفرايم" أن "نيكولاس" اعتاد أن يذبح دجاجة مساء كلّ يوم، ودائما في مكان جديد، لكن لم يسمع أحد عن دجاجة جرت نصف مذبوحة عبر الحديقة، رغم أن ذلك لم يكن مستحيلا.

- مجرّد ذريعة.

قال "دوكوفسكي" باستهانة:

- ويا لها من ذريعة غبية!
- هل تعرف "أكوالينا"؟
- نعم، يا صاحب النيافة، أعرفها.
- وهل أبعدك السيد عنها؟
- لا، على الإطلاق. لقد أبعدني.. هناك السيد "بسيكوف"، "إيفان ميخائيلوفتش"، وقد أبعد السيد "إيفان ميخائيلوفتش". ذلك هو ما حدث.

ارتبك "بسييكوف"، وبدأ يهرش في عينه اليسرى. تطلع إليه "دوكوفسكي" باهتمام، ملاحظا ارتباكه، وبدأ يفكر. لاحظ أن القائد يرتدي بنطلونا أزرق داكنًا، لم يلاحظه من قبل. ذكره البنطلون بالخيوط الزرقاء الداكنة التي وجدوها على نبات الأرقطيون الشائك. حملق "تشوبيكوف" بدوره بشكل مثير للريبة في "بسييكوف".

- اذهب!

قال لـ "نيكولاس".

- والآن اسمح لي أن أطرح عليك سؤالا، أيها السيد "بسييكوف". بطبيعة الحال، كنت هنا مساء يوم السبت الماضي؟
- نعم، تناولت العشاء مع "ماركوس إيفانوفتش" في حوالي العاشرة تماما.
- وبعد ذلك؟
- بعد ذلك.. بعد ذلك.. حقيقة، لا أذكر.

تلعثم "بسييكوف"، ثم استطرد:

- كانت صفقة جيدة للشرب مع العشاء. لا أتذكر متى أو أين ذهبت للنوم. لماذا تنظر إلي بهذا الشكل كما لو كنت أنا القاتل؟
- أين كنت عندما استيقظت؟
- كنت في مطبخ الخدم، راقدا وراء الفرن! يمكنهم جميعا أن يؤكدوا ذلك. لكن كيف أصبحت وراء الفرن فهذا ما لا أعرفه.
- لا تتحرّك بعيدا.. هل كنت تعرف "أكوالينا"؟

- ليس هناك شيء غير عادي حول ذلك الأمر..

- لقد أحبتك أولا، لكنها فضلت "كلاوسوف" بعد ذلك؟

- نعم. منحنا "أفرايم" كمية أكبر من الفطر! هل ترغب بمزيد من الشاي، يا "أوجراف كوزميتش"؟

بدأ صمت ثقيل جبري استمرّ لمدّة خمس دقائق كاملة. أبقى "دوكوفسكي" عينيه مثبتتين على وجه "بسيبكوف" الشاحب. أخيرا، تمّ كسر حاجز الصمت بواسطة قاضي التحقيق:

- يجب أن نذهب إلى البيت، ونتحدث مع "ماريا إيفانوفنا"، شقيقة المتوفى. ربّما تستطيع إمدادنا ببعض المعلومات.

أعرب "تشوبيكوف" ومساعده عن شكرهما للإفطار، وتوجها نحو المنزل. سرعان ما عثرا على أخت "كلاوسوف"، "ماريا إيفانوفنا"، خادمة عجوز في الخامسة والأربعين، كانت في الصلاة قبل القضية الكبيرة لرموز الأسرة. وقد شحب وجهها عندما رأت شخصيات رسمية في ضيافتها.

- اسمحوا لي أن أبدأ بالاعتذار لما سببته من إزعاج، إذا جاز التعبير، لإخلاصكم.

بدأ "تشوبيكوف" الباسل بالانحناء والتدبّر.

- جئنا إليكم بطلب سمعتم به مسبقا بطبيعة الحال. هناك اشتباه بأن أخاك العزيز قد قتل، بطريقة أو بأخرى. إنها إرادة الله، كما تعرفين لا أحد

يستطيع الهروب من الموت، لا القيصر ولا الفلاح. ألا يمكنك أن تساعدينا بإمدادنا ببعض مفاتيح، بعض تفسيرات؟

- أوه، لا تسألني!

قالت "ماريا إيفانوفنا"، وما زال شحوبها يتزايد، ليغطي وجهها ويديها:

- لا يمكنني أن أقول شيئا. لا شيء! أتوسّل إليكم! أنا لا أعرف شيئا.. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أوه، لا! لا! ولا مجرّد كلمة واحدة عن أخي! وإذا تحتم أن أموت، فلن أقول أي شيء!

بدأت "ماريا إيفانوفنا" في البكاء، وغادرت الحجرة. تبادل المحققون النظرات كلّ مع الآخر، وهزوا أكتافهم استهجانا، وبدأوا يتراجعون.

- أربكتنا المرأة!

قال "دوكوفسكي" موبّخا، وهو يغادر الغرفة:

- من الواضح أنها تعرف شيئا وتخفيه! حتى خادمة غرف النوم لها تعبير غريب أيضا! انتظري، أيتها البائسة! سوف نستكشفها جميعا!

في المساء أضاء القمر الشاحب لـ"تشوبيكوف" ونائبه طريقهما إلى البيت. جلسا في عربتهما مفكرين مليا في نتائج اليوم. كان كلاهما متعبا وصامتا. كان "تشوبيكوف" دائما غير مستعد للتحدث أثناء السفر، وظلّ "دوكوفسكي" الثرثار صامتا، وإن وافق على فكاهة الرجل الأكبر. لكن في نهاية رحلتهما لم يستطع النائب أن يتماسك أكثر من ذلك، فقال:

- إنه أمر مؤكد تماما. إنّ لدى "نيكولاس" شيئًا ما يفعله في هذه المسألة دون أيّ شك. يمكنك أن ترى على وجهه نوع الحالة الموجود بها! خانه ادعاؤه بالغيبة كليّة. لكن من المؤكد أيضا أنه لم يحدد ما يحدث. كان مجرّد أداة استأجرت أيضا. هل توافق؟ و"بسييكوف" المتواضع كانت له حصة طفيفة في المسألة. مؤخرته الزرقاء الداكنة، انفعالاته، رقوده خلف الموقد مرعوبا بعد الجريمة، إن غيبته و"أكوالينا"...

- اطحن بعيدا "إيمليان"، إنه أسبوعك! لذا وفقا لك فإنّ من يعرف "أكوالينا" هو القاتل! متهوّر! ينبغي أن تمص زجاجة لا أن تتناول مثل هذه الشؤون! لقد كنت أنت بنفسك واحدا من معجبي "أكوالينا".. ألا يتبع ذلك أن تصبح أنت نفسك متورطا؟

- كانت "أكوالينا" طاهية في منزلك لمدة شهر. لن أقول شيئا عن ذلك! الليلة التي سبقت يوم السبت ذاك كنت أمارس لعب الورق معك، ورأيتك، ألا ينبغي أن أكون وراءك أيضا! ليست المرأة هي التي تهمّ أيها الشاب العجوز، إنّها روح الغيرة من أمور معينة، سيئة، منغصة للروح، هي التي تهمّ. لم يسرّ الشاب المتقاعد عندما حصلت على أفضل منه، كما ترى! إنه غروره، ألا ترى؟ لقد أراد الانتقام. ثم كانت هاتان الشفتان السميكتان اللتان يسّرتا له الهوى. وهكذا يكون لديك جرح حبّ ذاتي وهوى. وهو ما يكفي تماما كدافع لجريمة قتل. لدينا اثنان بين أيدينا، لكن من هو الثالث؟ أمسكه "نيكولاس" و"بسييكوف"، لكن من خنقه؟ "بسييكوف" خجول متهيّب، وجبان من جميع النواحي، و"نيكولاس"

لا يعرف كيف يخنق بوسادة. إن أسلوب عمله هو بلطة أو هراوة. هناك شخص ثالث قام بالخنق. لكن من كان؟

كبس "دوكوفسكي" قبعته إلى أسفل فوق عينيه وفكّر. ظلّ صامتا حتى وصلت العربة إلى باب المحقق.

- أوريكا!

قال، داخلا إلى المنزل الصغير، خالعا معطفه:

- "نيكولاس يرموليفتش"! إنّ الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أن أفهمه، هو لماذا يحدث لي ذلك عاجلا؟ هل تعرف من كان الشخص الثالث؟
- أوه، من أجل الإله، اخرس! هناك عشاء! اجلس لتناول وجبة المساء!

جلس قاضي التحقيق و"دوكوفسكي" لتناول العشاء. سكب "دوكوفسكي" لنفسه كأسا من الفودكا. نهض، انتصب، وبعينين متألقتين قال:

- حسنا، فلتعلم أن الشخص الثالث الذي تصرف في الحفل مع الوغد "بسييكوف" وقام بالخنق كان امرأة! نعم! أعني أخت الرجل المقتول، "ماريا إيفانوفنا"!

تجرّع "تشوبيكوف" الفودكا الخاصة به، وثبت عينيه على "دوكوفسكي":

- أنت لست... ماذا كان اسمها؟ إنّ رأسك ليست على ما يرام؟ أليس لديك أيّ ألم بها؟

- إن حالتي حسناة تماما، دعنا نقل إني مجنون. لكن كيف تفسّر ارتباكها عند ظهورنا؟ كيف تفسّر عدم رغبتها في الإفصاح لنا بأيّ معلومات؟ دعنا نعترف أنّ تلك مجرّد تفاهات. حسنا! صحيح! لكن تذكّر علاقتها. إنها تبغض أخاها. لن تسامحه أبدا لانفصاله عن زوجته. إنها من جماعة "الإيمان القديم"، عندها يبدو في عينيها ملحد متهتك. هناك أينعت جرثومة كراهيتها. يقولون إنه نجح في جعلها تعتقد أنه ملاك الشيطان، حتى أنه اندمج في روحانية حال وجودها!

- ماذا عن ذلك؟

- ألا تفهم؟ إنها إحدى عضوات جماعة "الإيمان القديم"، قتلته لتعصبها. يرجع الأمر ليس فقط إلى أنها تسوق إلى الموت عشبة ضارة، متهتكًا.. بل لأنها تحرر العالم من كافر.. وهناك، في رأيها، كانت خدمتها، إنجازها الديني! أوه، أنت لا تعرف أولئك الخادمات العجوزات في جماعة "الإيمان القديم". اقرأ "ديستويفسكي"! وما يقوله "ليسكوف" عنهم؟ إنها هي ولا أحد سواها حتى لو قمت بشق بطني. لقد خنقته! يا لها من امرأة غادرة! أليس ذلك هو السبب في أنها كانت تركع أمام الأيقونات عندما وصلنا، فقط كي تسحب اهتمامنا بعيدا: "دعني أركع وأصلي"، قالت لنفسها، و"سوف يعتقدون أنني هادئة ولم أتوقعهم!". تلك كانت خطة جميع المبتدئين في الجريمة، "نيكولاس يرموليفتش"، أيها الصديق القديم! يا عزيزي الرجل العجوز، ألن تأتمنني على هذا العمل؟ دعني شخصيا أحضره! أيها الصديق، لقد بدأت هذا العمل وسأنهيه!

هز "تشوبيكوف" رأسه وتجهّم، ثم قال:

- نحن نعرف كيف ندير المسائل الصعبة بأنفسنا.

ثم استطرد:

- ولن تدفعك أعمالك إلى حيث لا تنتمي. اكتب الإملاء عندما يملى عليك، تلك هي مهمتك!

انفجر "دوكوفسكي" بالغضب، صفق الباب، واختفى.

- نذل ذكي!

تمتم "تشوبيكوف"، ناظرا وراءه:

- ماهر على نحو بغيض! لكنه متهوّر كثيرا. ينبغي أن أشتري له علبة سيجار من المعرض كهدية.

مبكرا في صباح اليوم التالي، جرى تقديم شاب برأس كبير وفم كأنه مطارد، جاء من مكان "كلاوسوف"، إلى مكتب قاضي التحقيق. قال إنه الراعي "دانيال"، ويحمل معلومات هامة. قال:

- كنت مخمورا قليلا.

ثم استطرد:

- كنت مع صديقي حتى منتصف الليل. وفي طريق عودتي إلى البيت وأنا مخمور، ذهبت إلى النهر لآخذ حماما. وبينما كنت أستحم، نظرت إلى أعلى. كان هناك رجلان يسيران فوق السدّ، حاملين شيئا أسود. "شو!"..

صحت فيها. خافا، وهربا مثل الريح نحو حديقة الملفوف في "ماكاريف". فلأسقط ميتا إذا لم يكونا يحملان السيد بعيدا!

جرى اعتقال "بسييكوف" و"نيكولاس" في اليوم نفسه قرب المساء، وأحضرا تحت حراسة إلى موقع الشرطة بالمدينة، حيث تم إيداعهما زنزانات السجن.

انقضى أسبوعان.

كان صباح يجلس فيه مفتش التحقيق "نيكولاس يرموليفتش" في مكتبه أمام مائدة خضراء، يقلب في أوراق قضية "كلاوسوف"، وكان "دوكوفسكي" يتحرّك قلِقا ذهابا وإيابا مثل ذئب في قفص:

- أنت مقتنع بذنب "نيكولاس" و"بسييكوف"؟

قال، ناتفا بعصبية شعيرات من لحيته الغضّة:

- لماذا لا تؤمن بأن "ماريا إيفانوفنا" مذنبة أيضا؟ أليست هناك إثباتات كافية؟

- إنني لم أقل إني لست مقتنعا. أنا مقتنع، لكن على نحو ما لا أعتقد بذلك! ليست هناك براهين حقيقية، بل هي مجرّد نوع من فلسفة تعصبية، هذا وذاك...

- أنت لا يمكنك أن تقتنع دون فأس أو ملاءات ملطخة بالدماء. يا لهؤلاء المحلفين! حسنا، سأثبت لك! ستتوقف عن احتقار الجانب النفسي لهذه القضية! إلى سيبيريا مع "ماريا إيفانوفنا" خاصتك! سأثبتها! إذا لم تكن

الفلسفة كافية بالنسبة لك، فإنّ لديّ شيئا كبيرا سيبيّن كم أن فلسفتي صحيحة. امنحني فقط إذنا...

- عمّ تنوي أن تتكلم؟

- عن أعواد الثقاب! هل نسيتها؟ أنا لم أفعل! سأمضي لاكتشاف من أشعلها في غرفة الرجل القتيل. لم يكن "نيكولاس" من أشعلها، وهو ليس "بسييكوف"، لأن كلا منهما لم يكن لديه أيّ أعواد ثقاب عندما جرى فحصهما، كان هناك شخص ثالث، هو "ماريا إيفانوفنا". سأثبت لك ذلك. فقط امنحني إذنا بالذهاب خلال المحافظة لاكتشاف الأمر.

- هذا يكفي! اجلس. دعنا نمضي قدما في الفحص.

جلس "دوكوفسكي" إلى المائدة الصغيرة. تعلق أنفه الطويل في حزمة من أوراق.

- أدخل "نيكولاس تيتخوف".

صاح مفتش التحقيق الفاحص. أدخلوا "نيكولاس تيتخوف". كان "نيكولاس" شاحبا ورقيقا مثل قضبان السكك الحديدية. كان يرتجف.

- "تيتخوف".

بدأ "تشوبيكوف":

- حوكمت في عام 1879 في محكمة من الدرجة الأولى، أدنت بالسرقة، وحكم عليك بالسجن. وحوكمت عام 1882 للمرّة الثانية للسرقة أيضا، وسجنت مرّة أخرى. نحن نعرف كل...

بدت دهشة على وجه "نيكولاس". أذهلت مفتش التحقيق العليم بكلّ شيء. لكن سرعان ما تغيّر التعبير من الاستغراب إلى سخط شديد. وبدأ يبكي طالبا الإذن بالذهاب كي يغسل وجهه ليهدأ. قادوه بعيدا.

- أحضروا "بسييكوف".

أمر مفتش التحقيق.

أدخلوا "بسييكوف". كان الشاب قد تغيّر كثيرا خلال الأيام الماضية. ازداد نحافة وشحوبا، وبدا منهكا، وكان في عينيه تعبير لا مبالي.

قال "تشوبيكوف".

- اجلس يا "بسييكوف".

ثم استطرد:

- آمل أن تكون اليوم معقولا، ولا تكذب مثلما فعلت من قبل. لقد أنكرت خلال كلّ هذه الأيام أي شيء فعلته مع مقتل "كلاوسوف"، رغم أنّ كلّ البراهين تشهد ضدك. هذا غباء. سيخفف الاعتراف من جرمك. هذه هي المرة الأخيرة التي سأتحدث فيها معك. إذا لم تعترف اليوم، غدا سيكون متأخرا جدا. تعال، خبرني..

- أنا لا أعرف أي شيء عن الموضوع، ولا أعرف شيئا عن براهينك.

أجاب "بسييكوف" بصوت خافت تقريبا.

- لا فائدة. حسنا، دعني أوضح لك كيف وقعت هذه الورطة. كنت تجلس مساء السبت في غرفة نوم "كلاوسوف"، وشربت معه فودكا وبيرة.



(ثبت "دوكوفسكي" عينيه على وجه "بسييكوف"، وأبقاهما عليه أثناء الاستجواب).

- كان "نيكولاس" ينتظرك. في الواحدة تماما، أعلن "ماركوس إيفانوفتش" نيّته الذهاب إلى الفراش. اعتاد أن يذهب إلى الفراش في الواحدة تماما. حين كان يخلع حذاءه ذا الرقبة، ويعطيك توجيهات حول تفاصيل الإدارة، ووفق إشارة معينة، قمت أنت و"نيكولاس" بإمساك سيدكما المخمور، وألقيتما به على الفراش. جلس أحدكما على ساقيه، والآخر على رأسه. ثم جاء شخص آخر من الممر.. امرأة في ملابس سوداء، تعرفها جيدا، وهي التي سبق أن رتبت معك نصيبها في فعلك الإجرامي. أمسكت بوسادة وبدأت تخنقه. انطفأت الشمعة بينما كان الصراع مستمرا، فأخرجت المرأة علبة ثقاب من جيبها، وأضاءت الشمعة. ألم يكن الأمر كذلك؟ أرى على وجهك أنني أقول الحقيقة. لكن لنستمر. بعد أن خنقته، ورأيتم أنه قد توقف عن التنفس، سحبتماه أنت و"نيكولاس" من خلال النافذة، وأدليتماه قرب شجيرة الأرقطيون. وخوفا من أين يعود ثانية للحياة، ضربته بشيء حاد. ثم حملتماه بعيدا، وأرقدتماه تحت شجرة ليلاك لفترة قصيرة. وحملتماه عبر السور، بعد استراحة لفترة معتبرة. ثم دخلت إلى الطريق. بعد ذلك جاء السدّ. وقُرب السدّ أخافك فلاح. حسنا! ما هو الحال معك؟

- إني أختنق.

أجاب "بسييكوف"، ثم استطرد:

- حسنا جدا.. لقد جعلت الأمر يبدو هكذا. اسمح لي بالخروج فقط، من فضلك!

قادا "بسييكوف" بعيدا.

- أخيرا اعترف.

صاح "تشوبيكوف"، متمطعا بترف:

- لقد خان نفسه! ولم أستطع أن أجول حوله بمهارة! لقد قبض عليه لانتظامه في نوم فترة القيلولة..

- ولم ينكر المرأة في الملابس السوداء!

اغتبط "دوكوفسكي".

- لكن ذلك هو نفس الأمر، لأن أمر الثقاب يعذبني بشكل مخيف. لم أعد أستطيع احتماله أكثر من ذلك. مع السلامة! إني منصرف!

ارتدى "دوكوفسكي" قبعته، وانطلق. بدأ "تشوبيكوف" يسأل "أكوالينا". أعلنت "أكوالينا" أنها لا تعرف أي شيء مهم حول الموضوع.

رجع "دوكوفسكي" في السادسة من ذلك المساء. كان مضطربا أكثر من أيّ وقت مضى. ارتعشت يداه لدرجة أنه لم يستطع فك أزرار معطفه الشهير. توهجت وجنتاه. كان من الواضح أنه لم يأتِ خالي الوفاض.

- فيني، فيدي، فيسي!

صاح مندفعا إلى غرفة "تشوبيكوف"، حيث ارتمى على كرسي ذي مسندين:

-أقسم بشرفي، أنني بدأت في الاعتقاد بأني عبقري! أنصت، ليأخذنا الشيطان جميعا! إنه أمر محزن ومضحك في نفس الوقت. لقد قبضنا على ثلاثة أفراد بالفعل.. أليس كذلك؟ حسنا، لقد وجدت الرابع، وهو امرأة. لن تصدق أبدا من تكون! لكن أنصت. لقد ذهبت إلى قرية "كلاوسوف"، وبدأت دوامة بحث حولها. قمت بزيارة جميع المحلات التجارية الصغيرة، والحانات، ومحلات جرعات الشراب المسكر على الطريق، وكنت أسأل في كل مكان عن علب الثقاب. وكانوا يجيبون في كل مكان أنها غير موجودة لديهم. لقد قمت بجولة واسعة. فقدت الإيمان عشرين مرة، واستعدته عشرين مرة أخرى. تجولت طوال اليوم، وقبل ساعة واحدة وضعت قدمي على المسار. كنت على بعد ثلاثة فرستات (بالقياس الروسي) من هنا. أعطوني حزمة من عشر علب. كانت هناك علبة ناقصة. سألت فورا: "من اشترى علبة أخرى مثل هذه الواحدة؟". أيها العجوز! "نيكولاس يرموليفتش"! انظر إلى ما أمكن لرفيق طرد من المدرسة، وقرأ "جابوريو".. أمكنه أن يفعل! من الآن فصاعدا بدأت أحترم نفسي! أوف! حسنا، تعال!

- إلى أين؟

-إليها، إلى رقم أربعة! يجب أن نسرع، وإلا.. وإلا سأنفجر فارغ الصبر! هل تعرف من هي؟ إنك لن تخمن أبدا! إنها "أولجا بتروفنا"، زوجة

"ماركوس إيفانوفتش".. زوجته.. تلك هي من تكون! إنها الشخص الذي اشترى علبة الثقاب!

- أنت .. أنت .. أنت فقدت صوابك!

- إن الأمر بسيط جدا! بادئ ذي بدء، إنها تدخن. وثانيا كانت منخرطة برأسها وأذنيها كلية في الحب مع "كلاوسوف"، حتى بعد أن رفض أن يعيش في نفس المنزل معها، لأنها كانت دائما توبخه. لماذا؟ يقولون إنها اعتادت أن تنهال عليه بالضرب لأنها تحبه حبا شديدا. ومن ثم رفض بالمقابل البقاء في نفس المنزل. تحول الحب إلى مرار. "لن يكون الجحيم عنيفا بقدر توبيخ امرأة". لكن لنستمر! أسرع، وإلا سيحل الظلام. تعال!

- أنا لست مجنونا بما فيه الكفاية حتى الآن كي أزعج امرأة شريفة محترمة في منتصف الليل من أجل صبي مجنون!

- شريفة، محترمة! هل تقتل السيدات الشريفات أزواجهن؟ وبعد ذلك تصبح مجرد خرقة بالية، لا قاضي تحقيق! لم أتخيل من قبل أبدا أن أدعوك بتلك الصفات، لكنك تدفعني الآن. خرقة! مرتديا ثوبا نسائيا! يا عزيزي "نيكولاس"، هيا تعال، إني أرجوك!

رسم المحقق علامة استنكار بيده.

- إني أرجوك! إنني لا أطلب شيئا من أجل نفسي، بل من أجل اهتمامات عادلة. إنني أرجوك! إنني أناشدك! افعل ما أطلبه منك فقط هذه المرة!

ركع "دوكوفسكي" على ركبتيه:

- يا "نيكولاس يرموليفتش"! كن طيبا! سمني حارسا أسود، وافعل أي شيء إذا كنت مخطئا بالنسبة لهذه المرأة. أنت ترى أي علاقة هي. يا لها من قضية. حكاية رومانسية! امرأة تقتل زوجها من أجل الحب! إن شهرتها ستنتشر في جميع أنحاء روسيا. سيجعلونك محققا في جميع القضايا الهامة. هل فهمت أيها العجوز الأحمق؟!

عبس القاضي، وامتدت يده دون حسم إلى قبعته، وهو يقول:

- أوه، فليأخذك الشيطان! دعنا نذهب!

كان الجو مظلما عندما وصلت عربة المحقق إلى شرفة بيت قروي قديم اتخذت منه "أولجا بتروفنا" ملاذا مع أخيها.

- يا لنا من خنازير.

قال "تشوبيكوف"، وهو يضغط على الجرس:

- كيف نزعج امرأة مسكينة مثل هذه؟!

- كل شيء على ما يرام! كل شيء على ما يرام! لا تصبح خائفا. يمكننا أن نقول إن ترس عجلة قد انكسر لدينا.

التقى "تشوبيكوف" و"دوكوفسكي" على أعتاب البيت مع امرأة ممتلئة الجسم، طويلة القامة، في الثالثة والعشرين من عمرها، مع حاجبين منزويين، وشفتين حمراوين مفعمتين بالحيوية. ليست "أولجا بتروفنا" بنفسها على ما يبدو أقل المنكوبين في هذه المأساة الأخيرة.

- أوه، يا لها من مفاجأة سارة!

قالت بابتسامة متسعة:

- لقد وصلتم في الوقت المناسب للعشاء. "كوزما بتروفيتش" ليس في المنزل. إنه يزور الكاهن، وقد بقي حتى وقت متأخر. لكننا سوف نمضي بدونه! اجلسوا. هل جئتم من التحقيق؟

- نعم، وقد كسر ترس عجلة، كما تعلمين.

بدأ "تشوبيكوف" في دخول حجرة الجلوس، ثم الغوص في كرسي ذي مسندين:

- خذ أقوالها على حين غرة.. فورا!

همس "دوكوفسكي":

- خذ أقوالها!

- ترس العربة.. همم.. هكذا وصلنا..

- خذ أقوالها، أقول لك! ستخمن ما هو الأمر إذا قمت بالاقتراب بهذا الشكل.

- حسنا، قم بذلك بنفسك وفق ما تريد. لكن دعني أخرج.

تمتم "تشوبيكوف" ناهضا، ماضيا نحو النافذة.

- نعم، ترس العربة.

بدأ "دوكوفسكي"، مقتربا من "أولجا بتروفنا"، وأنفها الطويل المتجعد:

- نحن لم نحضر إلى هنا لتناول العشاء معك، أو كي نرى "كوزما بتروفيتش" لقد جئنا هنا كي نسألك، أيتها السيدة المحترمة، أين "ماركوس إيفانوفتش" الذي قتلتيه!

- ماذا؟ هل قتل "ماركوس إيفانوفتش"؟

تلعثمت، وفجأة اعتلت وجهها الواسع فورا مسحة قرمزية ساطعة:

- **إنني لا أفهم!**

- **إنني أسألك باسم القانون؟ أين "كلاوسوف"؟ إننا نعرف كل شيء!**

- من أخبرك؟

سألت "أولجا بتروفنا" بصوت منخفض، غير قادرة على تحمل نظرة "دوكوفسكي".

- **كوني طيبة لترينا أين هو؟**

- لكن كيف اكتشفت الأمر؟ من أخبرك؟

- **نحن نعرف كل شيء! إنني أطلب ذلك باسم القانون!**

شجع ارتباكها قاضي التحقيق، فتقدم قائلا:

- **أظهريه لنا، وسوف ننصرف، وإلا فإننا...**

- ماذا تريد منه؟

- **سيدتي، ما فائدة هذه الأسئلة؟ إننا نسألك كي تظهريه لنا! فإذا بك ترتعشين، وتضطربين. نعم، لقد قتل، وإذا كان عليك أن تعرفي فقد قتل بواسطتك! لقد خانك المتواطئون معك!**

ازداد شحوب "أولجا بتروفنا":

- تعال.

قالت، بصوت منخفض، وهي تفرك يديها:

- إنه موجود لديّ.. مختفٍ في .. مبنى حمام! فقط من أجل الإله لا تخبر "كوزما بتروفيتش". إنني أرجوك وأناشدك! إنه لن يسامحني أبدا!

تناولت "أولجا بتروفنا" مفتاحا كبيرا من الجدار، وقادت ضيفيها عبر المطبخ وممر إلى الفناء. كان الفناء مظلما. تتساقط أمطار رفيعة. مشت "أولجا بتروفنا" في المقدمة. ومشى "تشوبيكوف" و"دوكوفسكي" وراءها بخطوات واسعة خلال العشب الطويل. بينما انتشرت رائحة القنب البري، وتساقط ماء رش تحت أقدامهم واصلا إليهم. كان الفناء واسعا. سرعان ما توقف ماء الرش، وشعروا بالأرض هشة وطازجة تحت أقدامهم، وظهرت في الظلام معالم غامضة من أشجار، وبين الأشجار منزل صغير بمدخنة منحنية.

- ذلك هو المبنى.

قالت "أولجا بتروفنا":

- لكني أناشدك ألا تقول لأخي! لأنك إذا فعلت فلن أسمع أبدا نهاية هذا الأمر!

شاهد "تشوبيكوف" و"دوكوفسكي" في طريقهما صاعدين إلى المبنى قفلا ضخما على الباب.

- أحضر شمعتك، واجعل ثقابك جاهزا.

همس قاضي التحقيق إلى نائبه.

فتحت "أولجا بتروفنا" القفل، ودعت ضيفيها إلى دخول مبنى تغيير الملابس. أشعل "دوكوفسكي" عود ثقاب وأضاء غرفة المدخل. انتصبت

مائدة في منتصفها. كان على المائدة، ساموفار متين صغير، وانتصبت أيضا سلطانية حساء مع شوربة ملفوف باردة، وطبق به بقايا من الصلصة.

- إلى الأمام!

ذهبوا إلى الغرفة التالية، حيث كان الحمام. كانت هناك مائدة أيضا، وعلى المائدة بعض من لحم الخنزير، زجاجة من الفودكا، أطباق، سكاكين، وشوك.

- لكن أين هو.. أين الرجل المقتول؟

تساءل قاضي التحقيق.

- في المستوى العلوي.

همست "أولجا بتروفنا"، وهي لا تزال شاحبة ترتعش. أحاط "دوكوفسكي" الشمعة بيده، وصعد إلى المستوى العلوي من الإطار المتعرق. شاهد هناك جسم إنسان طويل راقدا بلا حراك على سرير كبير من الريش. صدر عن الجسم شخير طفيف.

- ليأخذك الشيطان، هل تسخرين منا؟

صاح "دوكوفسكي":

- ليس هذا هو الرجل المقتول. هذا شخص غبي يرقد هنا. هنا، كائنا من كنت، ليأخذك الشيطان!

سحب الجسم نفسا سريعا، وتقلب. ألصق "دوكوفسكي" كوعه به. رفع يده، ثم مددها بنفسه، ورفع رأسه.

- من الذي يتسلل إلى هنا؟

سأل بصوت ثقيل، أجش:

- ماذا تريد؟

رفع "دوكوفسكي" الشمعة إلى وجه الشخص المجهول، وصرخ. بدا الشخص الراقد أنفا حمراء، أشعث الشعر، له شارب منزوٍ ملتوٍ من أحد طرفيه بشكل متبختر، مشيرا بوقاحة باتجاه السقف. أخيرا، تعرّف على الخيّال الباسل "كلاوسوف".

- أنت .. "ماركوس إيفانوفيتش"؟ هل هذا ممكن؟

نظر إليه قاضي التحقيق بحدّة، ووقف مترنحًا.

- نعم، إنه أنا. وذلك هو أنت، "دوكوفسكي"؟ بحقّ الشيطان، ماذا تفعل هنا؟ ومن هو ذلك الأبله الآخر هناك؟ يالـ"الثعابين العظيمة"! إنه قاضي التحقيق! ما هو القدر الذي دفع بكما إلينا؟

اندفع "كلاوسوف" إلى أسفل، وألقى بذراعيه حول "تشوبيكوف" في احتضان ودّي، وانسلت "أولجا بتروفنا" من الباب.

- كيف جئت إلى هنا؟ دعنا نتناول شرابا. ليأخذه الشيطان! ترا.. تا.. تي.. تو.. تم.. دعنا نشرب! لكن من أحضرك إلى هنا؟ كيف اكتشفت أني هنا؟ لكن ذلك لا يهم! دعنا نشرب!

أشعل "كلاوسوف" مصباحا، وصب ثلاثة كؤوس من الفودكا.

- يعتبر ذلك.. أنا لا أفهمك.

قال قاضي التحقيق، مجريا يديه عليه:

- هل هذا أنت؟ أم لست أنت؟
- أوه، اخرس! هل تريد أن تعظني بخطبة؟ لا تزعج نفسك أيها الشاب. "دوكوفسكي"، أفرغ كأسك! أيها الأصدقاء، دعونا نحضر هذه .. إلى ماذا تنظر؟ اشرب!
- إنه نفس الأمر، فأنا لا أفهم.

قال قاضي التحقيق، متجرّعا الفودكا بشكل آلي.

- لماذا أنت هنا؟
- ولماذا لا أكون هنا إذا كنت هنا فعلا؟

ارتشف "كلاوسوف" كأسه، وتناول قطعة من لحم الخنزير.

- إنني في الأسر هنا، كما ترى. في عزلة، في كهف، مثل شبح، أو إفراز أنف. اشرب! لقد حملتني وحبستني، و.. حسنا، إنني أعيش هنا في مبنى حمّام مهجور مثل ناسك، ولقد تعبت. سأفكر في محاولة الخروج الأسبوع القادم. لقد تعبت من الحبس هنا!
- هذا غير مفهوم.

قال "دوكوفسكي".

- ما هو غير المفهوم في هذا الأمر؟

- غير مفهوم! بحقّ السماء، كيف وصل حذاؤك ذو الرقبة إلى الحديقة؟
- أيّ حذاء برقبة؟
- وجدنا فردة حذاء برقبة في غرفة النوم، والأخرى في الحديقة.
- ولماذا تريدان أن تعرفا ذلك؟ إنه شيء لا يخصكما! ليأخذكما الشيطان، لماذا لا تشربان؟ طالما أنك أيقظتني، فعليك أن تشرب معي! إنها حكاية مثيرة للاهتمام يا أخي، تلك الخاصة بحذاء الرقبة! لم أكن أريد الذهاب مع "أولجا". لا أحبّ أن أقاد. لقد جاءت إلى النافذة، وبدأت تسيء إلي. لقد كانت دائما امرأة متسلطة. أنت تعرف أنها امرأة مثل كثير منهن. كنت مخمورا قليلا، لذا أخذت فردة الحذاء برقبة وقذفتها بها.. ها..ها. .ها! كي أعلمها ألا توبخني مرة أخرى! لكنها لم ترتدع! ليس بأي قدر يسير! بل تسلقت النافذة، أشعلت المصباح، وبدأت تقوم بمحاولات متكررة مع المخمور المسكين. لقد سحقتني، وجرتني إلى هنا، وأغلقت عليّ. إنها تغذيني الآن.. على الحب، الفودكا، ولحم الخنزير! ولكن لماذا تسعى لمعرفة ذلك، يا "تشوبيكوف"؟ إلى أين تمضي؟

استرسل قاضي التحقيق في السباب، وغادر مبنى الحمام. تبعه "دوكوفسكي"، مكتئبا. جلسا في العربة على مقعديهما بصمت، وانطلقا بها. لم يبد الطريق أبدا بهذا الطول والبغض بالنسبة لهما كما حدث في تلك المرّة. ظلا صامتين. ارتعش "تشوبيكوف" غضبا طوال الطريق. وخبأ "دوكوفسكي" أنفه في طوق معطفه، كما لو كان خائفا من أنّ الظلام وهطول المطر قد يسفران عن عار في وجهه.

عندما وصلا إلى البيت، وجد قاضي التحقيق دكتور "تيونييف" ينتظره. كان الطبيب جالسا إلى المائدة، يتنهد عميقا مقلبا صفحات مسرحية "نيفا" للروسي جالرمو كالديرون التي صدرت عام 1905.

- هذا ما يجري هناك في العالم.

قال مقابلا قاضي التحقيق بابتسامة حزينة:

- أدخلت النمسا في الأمر مرة أخرى، وجلادستون أيضا إلى حد ما..

ألقى "تشوبيكوف" قبعته تحت المائدة، وهزّ نفسه:

- هياكل عظمية لشياطين! لا تغظني! لقد أخبرتك ألف مرة ألا تزعجني بسياساتك! هذا ليس سؤالا في السياسة! وأنت...

قال "تشوبيكوف" مستديرا إلى "دوكوفسكي"، وهو يهز قبضته:

- إنني لن أنسى هذا ولو بعد ألف سنة!
- لكن الثقاب؟ كيف أمكنني أن أعرف؟
- اختنق نفسك بالثقاب! ابتعد عن طريقي! لا تجعلني أصاب بالجنون، وإلا فإن الشيطان وحده يعرف ماذا سأفعل معك! لا تدعني أر أيّ أثر لك!

تنهد "دكوفسكي"، تناول قبعته، وخرج:

- سأمضي لأسكر.

قرر ذلك أثناء ذهابه عبر الباب، وراح يشقّ طريقه محبطا إلى الحانة.

اللّه يعلم، لكنه يمهل

عاش التاجر الشاب "إيفان دمتريتش إكسيونوف" في بلدة "فلاديمير". كان يمتلك محلين ومنزلا خاصا، أكسبه شعره الأشقر وتجعيدة رأسه وسامة جعلته يفيض مرحا ويزداد ولعًا بالغناء. وعندما أصبح شابا مكتملا اعتاد أن يتعاطى الشراب، وعندما يتعاطى منه الكثير فإنه سرعان ما يتحوّل إلى مشاغب، لكنه تخلى عن الشراب بعد أن تزوّج، باستثناء مرّات قليلة ما بين فترة وأخرى.

كان "إكسيونوف" ذاهبا في أحد شهور الصيف إلى معرض "نيزني"، وبينما هو يودّع أسرته، قالت زوجته:

- لا ترحل اليوم، يا "إيفان دمتريتش"، لقد حلمت حلما سيئا.

قال ضاحكا:

- أنت تخافين من ذهابي للمعرض وانهماكي في نوبة نشاط لذيذ في نوبة نشاط لذيذ.

- لا أدري ممّ أخاف، ولكن رأيت حلما سيّئا. لقد حلمت بأنك عدت من المدينة، وعندما خلعت قلنسوتك رأيت شعرك رماديا تماما.

ضحك "إكسيونوف" ثانية، وقال:

- تلك علامة حظ، تعني أنني إذا لم أبع كلّ بضائعي، فلن أجلب لك بعض هدايا المعرض.

هكذا ودّع أسرته، وانطلق بعيدا.

عندما قطع نصف مسافة السفر، قابل تاجرا يعرفه، فتوقفا لتمضية الليل في نفس النزل. تناولا بعض الشاي معا، ثم مضيا إلى الفراش في غرفتين متجاورتين.

لم يكن من عادة "إكسيونوف" أن ينام إلى وقت متأخر، فقد كان يرغب في السفر بينما الجوّ ما زال باردا، فأيقظ سائقه قبل الفجر، وأمره أن يجهز الخيول.

شقّ طريقه في أرض مالك النزل (الذي سكن كوخا بالجزء الخلفي)، وبعد أن دفع فاتورته، استمرّ في رحلته.

توقف في نزل على الطريق كي يطعم الخيول، بعد أن قطع ما يقرب من خمسة وعشرين ميلا. استراح "إكسيونوف" لوهلة في ممرّ النزل، ثم خطا خارجا إلى الشرفة، آمرا بتسخين "السيماور"، وأخرج جيتاره وبدأ يعزف عليه.

فجأة سمع رنين أجراس مع توقف عربة "ترويكا" تجرّها ثلاثة خيول متراصة. ترجّل منها ضابط تلاه جنديان. مضى إلى "إكسيونوف" وبدأ


قطب

يستجوبه، سائلا إيّاه عمّن يكون، ومتى جاء؟ أجاب "إكسيونوف" عن أسئلته كلها، ثم قال:

- ألا ترغب في تناول بعض الشاي معي؟

لكن الضابط استمرّ في استجوابه وسؤاله:

- أين أمضيت الليلة الماضية؟ هل كنت وحدك، أم مع زميل تاجر؟ هل رأيت التاجر الآخر هذا الصباح؟ ولماذا غادرت النزل مبكرا قبل الفجر؟

تساءل "إكسيونوف" عن السبب في سؤاله كلّ تلك الأسئلة، لكنه أوضح كلّ ما حدث، ثم أضاف:

- لماذا توجّه الأسئلة لي كما لو كنت لصّا أو سارقا؟ إنني أسافر في عمل يخصّني، وليست هناك حاجة إلى التحقيق معي.

عندئذ قال المسئول مستدعيا الجنديين:

- أنا ضابط شرطة هذه المنطقة، وإنني أستجويك لأنّ التاجر الذي مكثت معه الليلة الماضية قد وجد مقتولا بقطع في حلقه. يجب أن نفتش الأشياء الخاصة بك.

دخلوا إلى البيت، تناول ضابط الشرطة والجنديان أمتعة "إكسيونوف" وفتشوها. فجأة سحب الضابط سكينا ضخما من حقيبة، صائحا:

- لمن هذا السكين؟

نظر "إكسيونوف".. رأى سكينا ملطخة بالدماء مأخوذة من حقيبته، فانتابه الخوف.

- كيف تكون هناك دماء على هذا السكين؟

حاول "إكسيونوف" الردّ، ولم يكد ينطق بمجرّد كلمة واحدة، بل تلعثم فقط، وهو يقول:

- لست أدري.. إنها لا تخصّني.

عندئذ قال ضابط الشرطة:

- لقد تمّ العثور هذا الصباح على التاجر في فراشه، وقد قطعت حنجرته. أنت الشخص الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك. كان البيت مغلقا من الداخل، ولم يكن هناك أيّ فرد آخر. ها هي سكين ملطخة بالدم في حقيبتك، ووجهك وسلوكك يخونانك! خبرني كيف قتلته؟ وما هو حجم الأموال التي سرقتها؟

أقسم "إكسيونوف" أنه لم يرتكب تلك الجريمة لأنه لم يرَ التاجر بعد أن تناولا الشاي معا، وأنه لا يحمل نقودا ما عدا الثمانية آلاف روبل خاصته، وأنّ تلك السكين لا تخصّه.

لكن صوته تهدّج، وشحب وجهه، وارتعش خوفا كما لو كان مذنبا.

أمر الضابط الجنديين أن يقيّدا "إكسيونوف"، وأن يضعاه في العربة. وبينما كانا يقيّدان قدميه معا، ويرميانه في العربة، رسم علامة الصليب على نفسه وبكى.

أخذت منه أمواله وبضائعه، وأرسل إلى أقرب مدينة حيث سجن هناك. أرسلت استفسارات عن شخصه إلى بلدة "فلاديمير". أفاد التجّار والسكان الآخرون أنه في الأيام السابقة اعتاد أن يشرب ويبدد وقته، لكنه إنسان طيّب. ثم جاءت المحاكمة: اتهم بقتل تاجر من "ريازان"، وسرقة عشرين ألف روبل.

كانت زوجته في حالة من اليأس، ولم تعرف ماذا تصدّق. كان أطفالها جميعا صغارا، وأحدهم على صدرها. أخذتهم جميعا معها، وذهبت إلى المدينة حيث كان زوجها في السجن. لم يسمح لها في البداية برؤيته، ولكن بعد كثير من الرجاء حصلت على إذن من المسئولين، وسمح لها بزيارته. حين شاهدت زوجها في ثياب السجن مكبّلا بالقيود، محتجزا مع اللصوص والمجرمين، سقطت مغشيا عليها، ولم تثب إلى رشدها إلا بعد فترة طويلة. ثم سحبت أطفالها إليها، وجلست على مقربة منه. حدثته عن أشياء جرت في البيت، واستفسرت منه عمّا حدث. حكى لها كلّ شيء، فسألت:

- ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟

- ينبغي علينا أن نقدّم التماسا للقيصر بعدم السماح بأن يلقى رجل بريء حتفه.

أخبرته زوجته أنها أرسلت التماسا إلى القيصر لكنه لم يقبل.

لم يرد "إكسيونوف"، لكنه بدا كسير القلب.

قالت زوجته:

- لم يكن عبثا أن حلمت أن شعرك قد تحوّل إلى لون رمادي. هل تتذكر؟ لم يكن عليك أن ترحل في ذلك اليوم.

ومررت أصابعها خلال شعره، قائلة:

- أيها العزيز فانيا، أخبر زوجتك بالحقيقة، لم تكن أنت من فعل ذلك؟

- حتى أنت تشكّين في!

قال "إكسيونوف" ذلك مخفيا وجهه بين يديه، بادئا في البكاء. ثم جاء جندي يقول إنه ينبغي على الزوجة والأطفال أن ينصرفوا، فودّع "إكسيونوف" أسرته للمرّة الأخيرة.

استدعى "إكسيونوف" بعد أن ذهبوا ما قيل، عندما تذكّر أنّ زوجته أيضا قد شكّت فيه، فقال لنفسه: **"يبدو أنّ الله وحده يعرف الحقيقة، لذا يجب أن نناشده وحده، ونتوقع الرحمة منه وحده"**.

لم يكتب "إكسيونوف" أيّ التماسات أخرى، وتخلى عن كلّ الآمال، وراح فقط يصلي.

حُكم على "إكسيونوف" بالجلد وإرساله إلى المناجم. جلد بأنشوطة من حبال، وعندما التأمت الجراح التي سببتها الأنشوطة، اقتادوه مع مدانين آخرين إلى سيبيريا.

عاش "إكسيونوف" ستة وعشرين عاما محكوما عليه في سيبيريا، حيث نمت لحيته واستطالت رمادية رقيقة، وتحوّل شعره إلى لون أبيض كالثلج،

وتلاشى مرحه، وانحنى ظهره، فكان يمشي ببطء، ويتحدّث قليلا، ولم يكن يضحك أبدا، لكنه كان يصلي في أغلب الأحيان.

تعلم "إكسيونوف" في السجن صناعة الأحذية ذات الرقبة، وكسب مالا قليلا، اشترى به كتاب **"حياة القديسين"**. قرأ هذا الكتاب عندما كان يتوفر هناك ما يكفي من ضوء في السجن، وقرأ دروس أيام الآحاد في كنيسة السجن، وغنى مع الجوقة لأنّ صوته كان لا يزال جيدا.

أحبّت سلطات السجن "إكسيونوف" لوداعته، واحترمه زملاء السجن وأطلقوا عليه "الجد" و"القديس"، وعندما كان السجناء يلتمسون شيئا من سلطات السجن، كانوا يجعلون من "إكسيونوف" متحدثا عنهم، وعندما كانت تنشأ مشاجرات بين السجناء كانوا يأتون إليه كي يحكم في الأمر ويضع الأمور في نصابها الصحيح.

لم تصل أيّ أخبار إلى "إكسيونوف" من بيته، ولم يعرف حتى ما إذا كانت زوجته وأطفاله ما زالوا على قيد الحياة.

وذات يوم جاءت عصبة جديدة من المحكوم عليهم إلى السجن. تجمّع المساجين القدامى في المساء حول المساجين الجدد مستفسرين منهم من أيّ المدن والقرى جاءوا؟ وما هي أسباب الحكم عليهم؟ جلس "إكسيونوف" بين البقيّة قرب الوافدين الجدد منصتا لما يقال مسبل العينين.

كان أحد المدانين الجدد رجلا، طويل القامة، قد يبلغ الستين من عمره، ذا لحية رمادية مشذبة تقريبا، راح يحكي للآخرين عن أسباب اعتقاله، قائلا:

- حسنا، أيّها الأصدقاء. لقد أخذت حصانا كان مربوطا إلى زلاجة، وقبض عليّ متهما بالسرقة. قلت إنني أخذته كي أصل فقط إلى المنزل بشكل أسرع وكنت سأتركه، بالإضافة إلى أنّ السائق صديق شخصي. هكذا قلت "إذن، الأمر على ما يرام". قالوا "لا، لقد سرقته". أمّا كيف وأين سرقته؟ لم يتمكنوا من الردّ. لكني فعلت، ذات مرّة شيئا خاطئا، وكان ينبغي طبقا للحقّ أن أجيء إلى هنا منذ زمن طويل، إلا أنني لم أكتشف في تلك المرّة. الآن أرسلت إلى هنا من أجل لا شيء على الإطلاق.. آه، لكن ما أخبركم به مجرّد أكاذيب، لقد كنت في سيبيريا من قبل، ولم أمكث طويلا.

سأل شخص ما:

- من أين أنت؟

- من فلاديمير. إن أسرتي من تلك المدينة. اسمي "ماكار"، ويطلقون علي "سميونيش".

رفع "إكسيونوف" رأسه قائلا:

- خبرني يا "سميونيش"، هل تعرف أيّ شيء عن تجار "إكسيونوف" من "فلاديمير"؟ هل ما زالوا على قيد الحياة؟.

- هل أعرفهم؟ نعم أعرفهم. إن تجار "إكسيونوف" أغنياء، رغم أن أباهم في سيبيريا: مذنب مثلنا، على ما يبدو! أما بالنسبة لك، يا جدي، خبرني كيف جئت إلى هنا؟

لم يرغب "إكسيونوف" في الحديث عن سوء حظه. تنهد فقط، وقال:

- من أجل خطاياي أمضيت في السجن هذه السنوات الست والعشرين.

تساءل "ماكار سميونيش":

- أيّ خطايا؟

لكن "إكسيونوف" قال فقط:

- حسنا، حسنا، لا بد أني أستحقها!

لم يقل أكثر من ذلك، لكن أصحابه أخبروا الوافدين الجدد أن "إكسيونوف" جاء إلى سيبيريا بسبب أن شخصا ما قتل تاجرا، ووضع السكين بين أمتعة "إكسيونوف"، وقد أدين "إكسيونوف" ظلما.

حين سمع "ماكار سميونيش" ذلك، نظر إلى "إكسيونوف" لاطما ركبته، هاتفا:

- حسنا، هذا شيء رائع! رائع حقا! لكن كم كبرت، يا جدّي!

سأله الآخرون عن السبب في اندهاشه، وأين سبق أن شاهد "إكسيونوف"؟ لكن "ماكار سميونيش" لم يجب، بل قال فقط:

- إنه لأمر رائع أن نلتقي هنا، أيها الشباب!

جعلت هذه الكلمات "إكسيونوف" يتساءل عمّا إذا كان ذلك الرجل يعرف من قتل التاجر، لذلك قال:

- ربّما سمعت يا "سميونيش" شيئا في هذا الشأن، أو ربّما رأيتني من قبل؟

- كيف أساعد شخصًا بإتاحة فرصة لسماع أقواله، في عالم مليء بالشائعات؟ لكن ذلك حدث منذ زمن طويل، وقد نسيت ما سمعت.

تساءل إكسيونوف":

- ربّما سمعت عمّن قتل التاجر؟

ضحك "ماكار سميونيش"، وأجاب:

- ينبغي أن يكون هو من وجدت السكين في حقيبته! إذا أخفى شخص ما السكين هناك، "فلن يكون لصا حتى يقبض عليه"، كما يقول المثل. وكيف يمكن لأيّ فرد أن يضع سكينا في حقيبتك بينما كانت تحت رأسك؟ لكان ذلك أيقظك بالتأكيد.

عندما سمع "إكسيونوف" هذه الكلمات، شعر أن هذا الرجل هو بالتأكيد من قتل التاجر. نهض وانصرف. ظلّ "إكسيونوف" يقظا طوال تلك الليلة. شعر أنّه تعيس بشكل رهيب، وتجلت كلّ أنواع الصور في ذهنه. كانت هناك صورة زوجته كما كانت عندما غادرها ذاهبا إلى المعرض. رآها كما لو كانت حاضرة، ارتفع وجهها وعيناها أمامه، فسمعها تتكلم وتضحك. ثم رأى طفلين من بين أطفاله، صغيرين تماما، كما كانا في ذلك الوقت: أحدهما مرتدٍ عباءة صغيرة، والثاني على صدر أمه. عندئذ، تذكّر نفسه كما

اعتاد أن يكون شابا مرحا. تذكّر كيف جلس يعزف على الجيتار في رواق النزل حيث قبض عليه؟ وكيف كان خليّ البال؟ رأى في خياله المكان الذي جلد فيه.. الجلاد، الناس يقفون من حولهما، السلاسل، المحكومين، كلّ السنوات الست والعشرين من حياة السجن، وشيخوخته المبكرة. جعله التفكير في كلّ ذلك بائسا لدرجة أنه كان مستعدا لقتل نفسه.

فكر "إكسيونوف": "كل ذلك من فعل الشرير!". وكان غضبه عظيما ضد "ماكار سميونيش" لدرجة أن نفسه تاقت للانتقام، حتى لو أهلك نفسه. ظلّ يردد الصلوات طوال الليل، لكنه لم يحصل على أيّ سلام، ولم يقترب من "ماكار" خلال النهار، ولم ينظر إليه حتى.

مرّ أسبوعان على هذا النحو. لم يكن "إكسيونوف" يستطيع النوم ليلا، وكان شديد البؤس لدرجة أنه لم يعرف ماذا يفعل.

ذات ليلة، بينما كان يتجوّل في السجن، لاحظ أن جزءا من الأرض قد خرج منبسطا من تحت أحد الألواح الخشبية التي ينام عليها السجناء. توقف كي يفهم كنه ما يحدث. فجأة زحف "ماكار سميونيش" خارجا من تحت اللوح، وتطلع إلى "إكسيونوف" بوجه خائف. حاول "إكسيونوف" أن يمرّ دون النظر إليه، لكن "ماكار" تشبث بيده، وأخبره أنه حفر حفرة تحت الحائط، متخلصا من أتربة الحفريات بوضعها في حذائه ذي الرقبة، وتفريغها كلّ يوم على الطريق عندما يتوجه السجناء إلى عملهم.

- عليك أن تبقى فقط هادئا أيها العجوز، وستخرج أنت أيضا. أما إذا كنت ثرثارا، فإنهم سيجلدونني نازعين الحياة مني، لكنني سأقتلك أولا.

اشتعل "إكسيونوف" غضبا، وهو ينظر إلى عدوّه. انتزع يده بعيدا، قائلا:

- ليست لديّ رغبة في الهرب، وليست هناك حاجة لقتلي، فقد قتلتني منذ زمن بعيد! وها أنا أخبرك، إنني قد أفعل ذلك أو لا أفعل، تماما كما سيوجهني الإله.

في اليوم التالي، عندما كان المدانون يتوجّهون إلى العمل، لاحظت قافلة الجنود أن فردا أو آخر من السجناء قد أفرغ بعض أتربة التربة من حذائه ذي الرقبة. هكذا جرى تفتيش السجن، وتم اكتشاف النفق. جاء آمر السجن، وحقق مع جميع السجناء محاولا اكتشاف من حفر الحفرة. أنكر الجميع أيّ معرفة بها. هؤلاء الذين عرفوا لم يريدوا خيانة "ماكار سميونيش" لعلمهم أنه قد يجلد حتى الموت. أخيرا تحوّل الآمر نحو "إكسيونوف" الذي كان يعرف بأنه رجل عادل، وقال:

- أنت عجوز صادق، خبرني أمام الله، من حفر الحفرة؟

وقف "ماكار سميونيش" كما لو أنه لا يبالي إطلاقا، ناظرا إلى الآمر، وليس كثيرا ما كان يلقي نظرة عابرة إلى "إكسيونوف". ارتعشت شفتا ويدا "إكسيونوف"، ولفترة طويلة لم يستطع أن ينطق ببنت شفه. فكّر: "لماذا أحمي من دمّر حياتي؟ دعه يدفع ثمن ما عانيت. لكن لو أخبرتهم، قد يجلدونه حتى الموت، وربّما أكون قد شككت فيه بالخطأ. وبعد كلّ شيء ما الخير الذي سيجلبه ذلك لي؟".

كرر الآمر كلماته:

- حسنا، أيها العجوز، أخبرني بالحقيقة: من الذي حفر تحت الجدار؟

حملق "إكسيونوف" إلى "ماكار سميونيش" قائلا:

- **لا أستطيع أن أقول، يا صاحب السعادة، إنها ليست إرادة الله أن أخبرك! افعل ما ترغب معي، فأنا بين يديك.**

ومع ذلك، رغم كثرة ما حاوله الآمر، لم يزد "إكسيونوف" حرفا، وهكذا جرى ترك الموضوع.

في تلك الليلة، بينما كان "إكسيونوف" راقدا على سريره، وقد بدأ النوم يراوده، أقبل شخص ما وجلس بهدوء على سريره. حملق في الظلام، وتعرّف على "ماكار". تساءل "إكسيونوف"، قائلا:

- **ماذا تريد؟ امض بعيدا، وإلا سأستدعي الحراس!**

انحنى "ماكار سميونيش" قرب "إكسيونوف"، وهمس:

- **اغفر لي، يا إيفان دمتريتش!.**

تساءل "إكسيونوف":

- **لماذا؟**

- **لقد كنت أنا من قتل التاجر، وأخفى السكين في متاعك. كنت قد نويت أن أقتلك أيضا، لكنني سمعت ضوضاء بالخارج، فأخفيت السكين في حقيبتك، وهربت من النافذة.**

كان "إكسيونوف" صامتا، ولم يعرف ماذا يقول. أزاح "ماكار سميونيش" لوح السرير، وركع على الأرض، قائلا:

- **سامحني، يا "إيفان دمتريتش"! من أجل خاطر الإله، اغفر لي! سأعترف بأنني من قتل التاجر، وسيطلق سراحك، حتى يمكنك أن تعود إلى منزلك.**

قال "إكسيونوف":

- **من السهل عليك أن تتكلم، لكنني عانيت بسببك ستة وعشرين عاما. أين يمكنني أن أذهب الآن؟ لقد ماتت زوجتي، ونسيني أطفالي. لم يعد لديّ مكان أذهب إليه..**

لم ينهض "مكار سميونيش"، لكنه ضرب رأسه بالأرض:

- **سامحني، يا "إيفان دمتريتش"!.**

بكى ثم استطرد:

- **لن يكون صعبا أن أتحمّل حين يجلدونني بأنشوطة الحبال مثل أن أراك الآن.. لقد أشفقت عليّ ولم تخبرهم. من أجل المسيح، سامحني، أنا بائس، تعس.**

وبدأ ينتحب. عندما سمعه "إكسيونوف" ينتحب، بدأ هو أيضا يبكي:

- **سيغفر لك الله!**

قال:

- **ربّما أكون أسوأ منك مائة مرّة.**

وعندما نطق بتلك الكلمات خفّ قلبه، وغادره الشوق إلى البيت. ولم تعد لديه أيّ رغبة في مغادرة السجن، لكنه رغب فقط أن تأتي ساعته الأخيرة.

وعلى الرغم من كلّ ما قاله "إكسيونوف"، اعترف "ماكار سميونيش" بجريمته. لكن حين صدر الأمر بإطلاق سراح "إكسيونوف"، كان قد مات.

السويدية: سلمى لاجراوف

منجم الفضة

كان الملك "جوستاف" الثالث يقوم برحلة سريعة عن طريق "دالارنا". لكنه كان غير راضٍ على الرغم من أن كل من الحصانين يبدوان إلى حدّ ما كمن يركض بسرعة ملامسًا للأرض. انحنى باستمرار بجسمه خارجا من نافذة العربة الملكية ليحثّ السائق على جعلها تسرع، بينما تتوقع حاشيته أن تنكسر المركبة الملكية أو طاقم الحصانين في أيّ لحظة.

أخيرا انكسر فعلا عريش المركبة الفاصل بين جواديها. قفز أفراد الحاشية منها، وبعد عملية فحص سريع قيل إنه من المستحيل مواصلة الرحلة دون إصلاحات. سأل بعض أفراد الحاشية الملك، وهم يتوقون للترفيه عنه، عمّا إذا كان يودّ أن يحضر القداس في كنيسة صغيرة يمكن أن ترى في المواجهة على مسافة ليست بعيدة.

وافق الملك، وخطا إلى إحدى العربات الأخرى، متوجّها إلى الكنيسة. استمرّ راكبا عدّة ساعات خلال مساحات شاسعة من الغابات، وهو ما جعله أكثر سرورا لخروجه إلى مشهد الحقول الخضراء والقرى الصغيرة. وبينما كان ينزلق بين حشود أشجار صفصاف رشيقة، تألق ساكنو الوديان إلى الأمام.

لم يستطع الملك مع ذلك حضور القداس، إذ بمجرّد أن هبط من العربة إلى فناء الكنيسة، ارتفع رنين جرس القندلفت معلنا الإغلاق. ظهر المصلون

خارجين من الكنيسة. عندما كانوا يمرّون بالملك، حيث توقف وهو يخطو بإحدى قدميه على درجة النزول، بدا معجبا بما يحملون من إخلاص شديد وخير قويّ.

كان الملك قد أبدى لحاشيته في اليوم السابق ملاحظة حول فقر الريف الذي كانوا يعبرون خلاله. لذلك قال:

- حسب ما يبدو، الآن، إنني أتحرّك خلال أفقر جزء في مملكتي.

ومع ذلك، عندما رأى فقر هؤلاء، نسي فقر البلد. تدفق دفء إلى قلبه، فقال لنفسه: **"ليس ملك السويد في مثل هذه الظروف السيئة، كما يعتقد بعض أعدائه. ما دامت هناك موضوعات خيّرة ونافعة مثل هؤلاء، فسأكون قادرا على الدفاع بنجاح عن تاجي وأرضي".**

أمر أحد أفراد الحاشية أن يخبر الناس أن الغريب بينهم هو ملكهم، وأنه يودّ أن يتجمعوا حوله لأنه يودّ أن يوجّه إليهم خطابا.

تحدث إليهم، وهو واقف على الدرجة العليا التي تقود إلى المذبح، ويمكن الاطلاع على موضع تلك الخطوة هناك حتى يومنا هذا.

أخبر الملك شعبه أولا بالموقف في المملكة. لقد هوجمت السويد من قبل كلّ من روسيا والدنمارك. ولن يكون ذلك مزعجا تحت أيّ ظروف عادية، لكن في الزمن الحاضر، كان الجيش مليئا بالخونة، بحيث لا يمكن الاعتماد عليه. لذلك لم يجد بديلا سوى الذهاب بنفسه إلى البلدات الصغيرة، سائلا

رعاياه عمّا إذا كانوا يرغبون في الوقوف إلى جانب الخونة، أم أنّهم على استعداد لمساعدة الملك بالجنود والمال لإنقاذ الوطن.

بينما كان الملك يوجه خطابه الجاد، وقف الفلاحون باهتمام أقوياء أمامه، دون أن يدلوا بأيّ تعليق، ودون منح أيّ إشارة عمّا إذا كانوا موافقين أم لا. شعر الملك عندئذ بسرور داخلي من قوّة خطابه، لكن حين وقف الفلاحون صامتين، غير قادرين على الإجابة، عبس وأظهر خيبة أمله.

فهم المزارعون أن الملك يتحرّق شوقا في انتظار ردّهم، عندئذ تقدم أحدهم وخطا للأمام، قائلا:

- الآن، يجب أن تعرف أيها الملك "جوستاف" أننا لم نكن نتوقع زيارة من ملكنا هذا اليوم. وأودّ أن أقترح أن تذهب إلى المذبح، وتتحدث مع الكاهن، بينما نناقش فيما بيننا هذا الموضوع الذي طرحته علينا.

أدرك الملك أنه لم يكن ممكنا وجود حلّ أفضل، فقرر أن يأخذ بمشورة المزارع.

عندما دخل إلى غرفة التأمّل، لم يجد أحدا سوى فلاح عجوز. كان طويل القامة، خشن المظهر، مع يدين كبيرتين وخشنتين من العمل الشاق. لم يكن ما ارتداه رداء أو ياقة، بل مجرّد بنطلون جلدي قصير، ومعطف من نسيج صوفي أبيض طويل، مثل الفلاحين الآخرين. نهض، وانحنى أثناء دخول الملك.

قال الملك:

- أعتقد أنني ينبغي أن أقابل الكاهن، هنا.

احمرّ وجه الآخر شاعرا بحرج، حين أدرك أنه قد يزعج الملك باعتباره أخطأ الكاهن لكونه مزارعا.

اعترف الرجل:

- نعم، يوجد القسّ هنا عادة.

أراح الملك نفسه على كرسي كبير، كان موجودا في غرفة التأمل في ذلك الوقت، وما زال قائما هناك مع تغيير وحيد، بعد أن وضعت الجماعة تاجا من الذهب على ظهره.

- هل لديكم كاهن رشيد هنا؟

تساءل الملك، راغبا في إظهار اهتمامه برفاهية الشعب.

عندما سأله الملك ذلك السؤال، شعر القسّ أنه من المستحيل أن يعترف بطبيعة شخصيته. قرر أنه من الأفضل السماح للملك بالاعتقاد بأنّه كان مجرّد مزارع، لذلك أجاب:

- الكاهن عادل. إنّه يعظ بكلمات واضحة عن الإله، ويحاول أن يعيش وفق ما يبشّر به.

فكّر الملك بأن تلك شهادة جيّدة. ومع ذلك، اكتشفت أذنه الحادة نبرة تردد في لهجة الرجل، لذلك قال:

- لكن، يبدو رغم ذلك، أنك لست راضيا تماما عن كاهنك.
- قد يكون جسورا.

قال الآخر، مفكّرا في نفسه: "إذا اكتشف الملك بعد ذلك من أكون، سيعرف أنني لم أصبّ سوى الإطراءات على نفسي". لذلك قرر أن يبرز قليلا من النقد:

- هناك من يقولون إنّ الراهب يميل إلى أن يصبح حاكم هذه القرية.

ثم تابع:

- إذا فهو يوجّه ويدبر كلّ شيء على أفضل وجه ممكن.

قال الملك. لم يكن مسرورا أن يجد الفلاح خطأ في بعض أعماله:

- يبدو لي أن كلّ شيء يدار هنا وفق عادات طيبة وببساطة نموذج قديم.

- الناس طيّبون.

قال القس:

- لأنهم يعيشون في مكان بعيد في عزلة وفاقة. لن يختلف الناس هنا على الأرجح عن غيرهم إذا اقتربت منهم تجارب وإغراءات العالم.

- هناك فرصة ضئيلة أن يحدث ذلك.

قال الملك مع هزة من كتفه.

لم يقل شيئا آخر، لكنه بدأ ينقر على المائدة بأصابعه. شعر أنه تبادل ما يكفي من الكلمات مع هذا الفلاح، وتساءل متى سيكون الناس جاهزين بإجابتهم، ثم فكر: "هؤلاء الفلاحون ليسوا حريصين على تقديم المساعدة إلى ملكهم، لو كانت عربتي الملكية جاهزة فقط، لانطلقت بعيدا عنهم وعن مداولاتهم".

اضطرب الكاهن بعمق، وسعى جاهدا داخل نفسه للعمل على توفير إجابة على مسألة مهمة ينبغي أن تسوّى بسرعة. شعر بسعادة لأنه لم يخبر الملك عمّن هو، لأنه الآن يمكنه مناقشة مسائل لم يكن ممكنا طرحها أمامه.

كسر حاجز الصمت الحرج بعد فترة من الزمن بسؤال الملك عمّا إذا كان صحيحا حقا أنّ الأعداء يحاصرونهم، وأنّ مملكتهم في خطر.

شعر الملك أن هذا الشخص ينبغي أن يتمتع بحسّ كاف كي لا يزعجه، فنظر إليه فترة دون ردّ:

- لقد سألتم السؤال وأنا واقف هنا في غرفة التأمل، فلم أتمكّن من سماع ما قلتموه بوضوح للناس. لكن في حال ما إذا كان ذلك صحيحا، فإنني أودّ أن أقرر أن راعي هذه الأبرشية ربّما يكون في مكنته أن يقدّم للملك كثيرا من المال بقدر حاجته..
- أعتقد أنك قلت إنّ جميع الناس هنا فقراء.

قال الملك، معتقدا أن الفلاح لا يعرف عمّا يتكلم.

- نعم، هذا صحيح.

وافق القس.

- وليس لدى الكاهن أكثر ممّا لدى أيّ شخص آخر. لكن إذا أكرمني الملك بالإنصات، فسأشرح له كيف أنّ لدى القس سلطة المساعدة.
- يمكنك أن تتكلم.

قال الملك "جوستاف":

- يبدو أنك تجد من الأسهل التعبير عن نفسك أكثر من الأصدقاء والجيران في الخارج الذين لن يكونوا أبدا جاهزين بإجابتهم.
- إنه ليس موضوعا سهلا أن تجيب على ملك. أخشى أنّه في النهاية سيكون من الضروري أن يتكلم كاهنهم لفائدتهم.

وضع الملك ساقا على ساق، طوى ذراعيه، وأسقط رأسه:

- يمكنك أن تبدأ.

قال مع نفس عميق استعدادا للسقوط في النوم:

- يحكى أنه ذات يوم، ذهب القسّ مع أربعة رجال من أبرشيته لصيد الغزلان.

بدأ القس:

- إلى جانب القس كان هناك جنديان، هما "أولاف" و"إريك سفارد"، وصاحب القرية، وفلاح يدعى "ازرائيل بيرز بيرسونز".
- لا يجب أن تذكر كثيرا من الأسماء.

صاح الملك، هو يحرّك رأسه قليلا.

- كان الرجال صيادين ماهرين يصاحبهم عادة حظ طيب، لكنهم سافروا طويلا في ذلك اليوم دون الاشتراك في أيّ مباراة صيد. أخيرا، تخلوا عن الصيد، وجلسوا على الأرض يتسامرون. أشاروا إلى حقيقة غريبة، وهي

أنّ الجزء الأكبر من أرض الريف غير صالحة للزراعة. كانت كلها صخورا، وتلالا، ومستنقعات.

- لم يفعل ربنا صوابا، عندما منحنا هذه الأرض الفقيرة لنعيش فيها.

قال أحدهم.

- يمتلك الناس، في مناطق أخرى، ثروات ووفرة، لكن هنا رغم كلّ جهودنا يمكننا بمشقة توفير احتياجات حياتنا اليومية.

توقف القس للحظة، كما لو كان غير متأكد من أن الملك قد سمعه. ومع ذلك، حرك الملك أصبعه الصغير كإشارة إلى أنه ما زال متيقظا.

بينما كان يتحدث الصيادون عن سوء حظهم، لاحظ الكاهن شيئا يتألق، فكشط بحذائه ذي الرقبة قطعة طحلب تغطيه، مفكرا: "هذا جبل رائع". كشط بعضا آخر من الطحلب، والتقط قطعة الحجر التي تتشبث به، متعجبا:

- هل يمكن أن يكون هذا خام الرصاص؟!

جاء الآخرون متلهفين بناء على كلمات المتحدث، وبدأوا تعرية الصخرة نابشين مخزونها. وهكذا كشفوا عرقا معدنيا عريضا على جانب الجبل.

- ماذا يفترض أن يكون هذا؟

تساءل الكاهن.

فصل كل رجل قطعة من الصخرة، وأخضعها لاختبار قاس، قائلا إنه يعتقد أنه ينبغي أن يكون على الأقل زنكا أو رصاصا.

- وقد امتلأ الجبل كله به. يا لشغفنا به كمشروع تجاري لمن يملك الأرض.



عندما وصل الكاهن إلى هذه المرحلة من القصة، رفع الملك رأسه قليلا، وفتح إلى حدّ ما عينا واحدة.

- هل تعرف إذا كان لدى أيّ من هؤلاء معرفة بالمعادن أو الجيولوجيا؟
- لا، إنّهم لا يعرفون.

أجاب الكاهن، بينما انخفض رأس الملك، وأغلق عينيه.

- كان الكاهن وأولئك الذين كانوا معه بالغي السرور.

استطرد الكاهن، غير عابئ بلامبالاة الملك:

- لقد اعتقدوا أنهم وجدوا شيئا سيكون سببا في الثراء، ليس لأنفسهم فقط، ولكن للأجيال القادمة بالمثل.
- لن أحتاج إلى العمل أبدا بعد ذلك.

قال أحدهم.

- لن أفعل شيئا خلال الأسبوع وحتى يوم الأحد، وسأركب إلى الكنيسة في عربة ذهبية.

كان هؤلاء عادة رجالًا ذوي حسّ سليم، لكن اكتشافهم العظيم أودى بعقولهم، لذلك يتكلمون الآن كالأطفال. وكان لديهم قدر من حضور الذهن، مع ذلك لوضع الطحلب بعناية مرّة أخرى في مكانه حتى يخفوا عرق المعدن. وبعد أن حددوا الموقع بدقة، ارتحلوا للوطن.

وقد اتفقوا جميعا قبل مغادرتهم، على أن يذهب القس إلى بلدة "فالون"، ويسأل "العداني"، المتخصص في علوم المعادن هناك عن نوع ذلك الخام. وكان عليه أن يعود سريعا في أقرب وقت ممكن، وقد أقسموا جميعا، حتى ذلك الحين، يمينا ملزما بأنهم لن يكشفوا لأيّ شخص موقع الخام.

رفع الملك رأسه قليلا، لكنه لم يقاطع السرد. وبدأ يعتقد أن لدى الرجل شيئا هاما يسرده، رغم أنه لم يسمح لنفسه بالخروج من مرحلة عدم اكتراثه.

بدأ الكاهن رحلته مع بعض عينات الخام في جيبه. كان سعيدا فقط لمجرّد تفكيره في أنه سيصبح ثريا مثلما سيكون الآخرون. استغرق في التفكير حول كيف سيصلح صومعته التي هي الآن ليست أفضل من كوخ، وكيف سيمكنه أن يتزوّج ابنة الأسقف، التي طالما رغب بها منذ فترة طويلة. وبخلاف ذلك كان سيضطر إلى الانتظار سنوات عديدة، لأنه كان فقيرا مغمورا، وكان يعرف أنه لا بد أن ينقضي وقت طويل قبل أن يعيّن في مكان يمكنه من الزواج من الفتاة التي اختارها.

استغرقت رحلة الكاهن إلى "فالون" يومين. وهناك كان مضطرا للانتظار يوما آخر لحين عودة المتخصص بعلم المعادن. وحين قابله أخيرا، وأظهر له عينات الخام، أخذها الرجل في يده، ونظر إليها، ثم نظر إلى الغريب. أخبره الكاهن بقصة كيف وجد هذه العينات في المنطقة المتاخمة لمنزله، وسأله عمّا إذا كانت من الرصاص.

- لا، إنها ليست رصاصا.

- إذا، زنك.

تلعثم الكاهن.

- لا، ليست زنكا.

غاضت كلّ الآمال في صدر الكاهن. إنه لم يشعر بمثل هذا الإحباط في أيّ يوم من الأيام.

- هل لديك أحجار كثيرة مثل هذه في بلدتكم؟

تساءل المتخصص في علم المعادن.

- لدينا جبل بأكمله.

أجاب الكاهن.

تقدّم الرجل من الكاهن، وربت على كتفه، وهو يقول:

- دعنا نرى أنك إذا قمت بمثل هذا الاستخدام سيجلب لك ولمملكتك خيرا كثيرا، لأنك وجدت فضة.

- هل هذا صحيح؟

تساءل الكاهن وهو في حالة ذهول:

- إذا ذلك فضة؟

شرح المتخصص في علوم المعادن ما ينبغي عليه أن يفعله للحصول على الحقوق القانونية للمنجم، وقدّم له مثل تلك النصيحة الغالية أيضا. ومع ذلك، وقف الكاهن حائرا، دون أن يسمع كلمة واحدة ممّا قيل. لقد فكر فقط في الأخبار الرائعة التي سيعود بها إلى الديار في حيّه الفقير حيث يقع جبل كامل من الفضة في انتظاره.

رفع الملك رأسه فجأة لأنّ الكاهن أوقف السرد:

- **افترض أنه عندما رجع الكاهن إلى موطنه، وبدأ العمل في المنجم، وجد أن المتخصص في علوم المناجم قدم له معلومات خاطئة.**

- **لا..**

قال الكاهن، ثم أكمل:

- **بل كان الأمر كما قال الرجل.**

- **يمكنك أن تستمر.**

وأسلم الملك نفسه مرّة أخرى للإنصات.

عندما وصل الكاهن إلى الوطن، كان أوّل شيء فعله هو البدء بإخطار رفاقه بقيمة ما عثر عليه. وبينما كان ينتقل إلى مكان مالك أرض القرية "ستينسون"، حيث كان ينوي الذهاب لإبلاغ صديقه أنهم عثروا على فضة، توقف عند البوابة، لأنه رأى ملاءات بيضاء معلقة أمام النوافذ، وممرّا عريضا من فروع شجرة الشكران يقود إلى عتبة الباب.

- **من مات هنا؟**

سأل الكاهن طفلا صغيرا كان يقف منحنيا أمام السور.

- **إنه مالك الأرض نفسه.**

ثم أخبر الكاهن أنه لمدّة أسبوع مضى كان المالك يعبّ كثيرا من الخمور، حتى أصبح في حالة سكر بيّن طوال الوقت.

- **كيف أمكن ذلك؟**

تساءل الكاهن:

- لم يشرب مالك الأرض من قبل أبدا بهذه الدرجة المفرطة.
- حسناا، الأمر كما ترى.

قال الولد، ثم استطرد:

- لقد شرب لأنّه تملكته فكرة أنه عثر على منجم. أصبح شديد الثراء، كما قال، لدرجة أنه لن يحتاج إلى القيام بأيّ عمل، بل أن يشرب فقط. وفي الليلة الماضية، قاد عربته وهو مسطول كما هو دائما، فسقط منها وقتل.

بعد أن سمع الكاهن كلّ ذلك، بدأ في اتخاذ طريق العودة إلى البيت، حزينا بسبب ما عرف. وما هي إلا دقيقة فقط قبل أن يطير فرحا بالأخبار السارة التي لديه حتى يخبر بها أصدقاءه.

وبعد أن قطع الكاهن مسافة صغيرة، قابل "ازرائيل بيرس بيرسون" يمشي على امتداد الطريق. ظهر كما هو معتاد، وكان الكاهن سعيدا لحظه الطيب الذي لم يدر رأسه. سيفرحه حالا بأخبار أنّه أصبح الآن رجلا غنيا:

- يوم سعيد!

قال الكاهن.

- هل جئت الآن من "فالون"؟
- نعم، ويمكنني أن أقول لك إنّ الأشياء جاءت أفضل مما اعتقدنا. قال المتخصص في علوم المعادن إنه كان خام فضة.

بدا "بيرس بيرسون" كما لو أن الأرض انفتحت كي تبتلعه:

- ماذا تعني؟ هل هو خام فضة؟
- نعم، سنصبح الآن جميعا رجالا أغنياء، قادرين على العيش كالملوك.
- أوه، هل هو فضة؟

كرر "بيرس بيرسون"، وهو ما يزال في غمّ كبير.

- من المؤكد أنه فضة.

قال الراهب، ثم أكمل:

- لا تظن أني أخدعك. لا تخف من أن تكون سعيدا.
- سعيد!

قال "بيرس بيرسون":

- هل ينبغي أن أكون سعيدا؟ لقد اعتقدت أنه ذهب مغشوش، لذلك بدا لي أنه من الأفضل اختيار شيء يقيني بدلا من شيء غير يقيني، فبعت نصيبي في المنجم لـ"أولاف سفارد" بمائة دولار.

بدا مكتئبا تماما. تركه الراهب واقفا هناك بدموع في عينيه.

حين وصل الراهب إلى البيت، أرسل خادما إلى "أولاف سفارد" وأخيه طالبًا منهما أن يأتيا إلى منزل القس كي يخبرهما بطبيعة ما وجدوه. شعر أن لديه ما يكفي من محاولات لنشر الأخبار السعيدة بنفسه.

لكن بينما جلس الكاهن وحده ذلك المساء، والفرح يملأ قلبه، خرج ووقف عند الرابية حيث قرر أن يبني صومعته الجديدة. ينبغي أن تكون تلك بطبيعة الحال كبيرة جدا، مثل بيت الأسقف نفسه.

لم يكن راضيا، علاوة على ذلك، بفكرة إصلاح الكنيسة القديمة. فقد حدث له أنه بينما لم يكن هناك كثير من الثروة في القرية الصغيرة، فإن عديدا من الأفراد سيجدون طريقهم إلى المكان، حتى تصبح في النهاية مدينة كبيرة، من المحتمل أن تبنى حول المنجم. فكر بأنه من الضروري عندئذ بناء كنيسة كبيرة جيّدة في مكان القديمة، الأمر الذي قد يتطلب جزءا عظيما من ثروته. وسواء أمكنه التوقف هنا في أحلامه أم لا، لأنه ظن أنه عندما يحين الوقت لتكريس هذه الكنيسة الجديدة، سيأتي إلى هناك الملك وعديد من الأساقفة. سيكون الملك مسرورا من رؤية مثل تلك الكنيسة، لكنه قد يلاحظ أنه لا يتوافر فيها تسهيلات مناسبة تكون عادة متوفرة في كنائس المدينة. ولذلك، قد يكون ضروريا بناء قلعة في المدينة.

عند هذه اللحظة، فتح أحد رجال الحاشية باب حجرة التأمل، وأعلن أن مقصورة الملك قد تم إصلاحها.

اعتقد الملك في البداية أنه سوف يغادر فورا، لكن بإعادة النظر، قال للكاهن:

- يمكنك متابعة قصتك حتى النهاية، لكن اجعلها مختصرة. نحن نعرف كيف حلم الرجل وفكّر، والآن نودّ أن نعرف ماذا فعل.

بينما كان الكاهن يجلس في خضم أحلامه، استطرد المتكلم:

- جاء خبر بأن "ازرائيل بيرس بيرسون" قد أنهى حياته. لم يستطع تحمّل فكرة غبائه لبيع نصيبه من المنجم. شعر بأنه غير قادر على الحياة وهو يرى من يوم لآخر شخصا مختلفا يتمتع بثروة كان يمكن أن تخصّه.

تحرّك الملك قليلا في كرسيه. كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما، قال:

- لو كنت أنا ذلك الكاهن، لأيقنت أني قد لاقيت ما يكفيني من ذلك المنجم.

الملك رجل غني، لديه على الأقل الكثير. لم يكن الأمر كذلك مع الكاهن الذي لا يملك شيئا. عندما رأى هذا الرجل الفقير، نعمة الله لم تظهر وهو يتولاها، فكر: "لا يجوز أن أحلم بالمزيد حول جعل نفسي مزدهرا ومفيدا مع هذه الثروات. لا يمكن أن أدع منجم الفضة يسقط على الأرض، ومع ذلك، يجب علي أن أستخرج الخام للفقراء والمحتاجين. سوف أعمل على أن يكون منجم الفضة في مساعدة وقوف التجمع كله على قدميه".

ذات يوم، ذهب الراهب إلى "أولاف سفارد" وأخيه للحديث معهما حول استخدام المنجم. حين اقترب من منزل الجندي، التقى عربة محاطة بمزارعين مرعوبين، بينما جلس بداخل العربة رجل مربوطة قدماه بحبل، ويداه وراء ظهره.

عندما كان الكاهن يمرّ، توقفت العربة، متيحة للكاهن فرصة أن يلاحظ السجين على نحو أوثق. كانت رأسه ملفوفة بحيث يصعب رؤية وجهه،

لكن الكاهن رأى أنه تعرّف على "أولاف سفارد". سمع السجين يتوسّل إلى الحراس، ليتركوه يتحدّث مع الكاهن.

حين اقترب من العربة، استدار السجين باتجاهه، قائلا:

- قريبا، ستكون أنت الشخص الوحيد الذي يعرف موقع منجم الفضة.
- ما هذا الذي تقوله يا أولاف؟
- كما ترى أيها الكاهن، فمنذ أن سمعنا أن ما وجدناه هو منجم فضة، لم نعد أنا وأخي صديقين حميمين كما كنا سابقا. غالبا ما تنازعنا، وفي الليلة الماضية جرى بيننا جدال حول أيّ منا كان ضمن أول خمسة وجدوا المنجم. تبادلنا لكمات، وقتلت أخي، بعد أن سبب لي إصابة عميقة على جبهتي. سوف أشنق الآن، وبذلك ستصبح أنت الوحيد الذي يعرف موقع المنجم. إنني أودّ أن أطلب شيئا منك..
- تكلم.

قال الكاهن، ثم استطرد:

- سوف أبذل كلّ ما في طاقتي من أجلك.
- أنت تعرف أني أخلف ورائي عددا من الأطفال الصغار، وذلك أمر معروف إلى حدّ بعيد.

قاطعه الكاهن:

- لا ينبغي أن تشعر بالقلق، أيّا ما كان نصيبك سيحصلون عليه..

قال "أولاف":

- لا، إنه شيء آخر أودّ أن أطلبه منك. لا تدعهم يحصلون على أيّ جزء من ذلك الذي سينتج عن المنجم.

تراجع الكاهن بضع خطوات إلى الوراء، ثم ظلّ فاقدا الحراك، غير قادر على الردّ.

- إذا لم تعدني بذلك، فلن أموت بسلام.

أخيرا، وعده الكاهن على مضض، واستمرّت العربة في طريقها حاملة القاتل إلى مصيره.

توقف الكاهن هناك في الطريق، مفكّرا بشأن كيفية الوفاء بالوعد الذي أعطاه حالا. وفكر مليا في طريقه إلى البيت في الثروات التي توقع أن تجلب فرحا.

فكر: "إذا كان ينبغي إثبات ذلك، فإنّ شعب هذه الرعية غير قادر على تحمّل الثروة، وطالما قد توفي أربعة فعلا ممن كانوا رجالا عمليين أقوياء، ألا ينبغي عليّ أن أتخلى عن فكرة تشغيل المنجم؟ تصوّر كلّ أفراد رعيته ماضين إلى الدمار بسبب الفضة. هل سيكون من الصواب أن يكون هو، الذي وُضع كوصي على نفوس هؤلاء الأفراد الفقراء، أن يضع بين أيديهم شيئا قد يكون سببا في خرابهم؟".

رفع الملك نفسه منتصبا في كرسيه، محملقا في المتكلم:

- قد أقول إنك جعلتني أفهم أن الكاهن لهذا التجمع المعزول يجب أن يكون رجلا حقيقيا.

- لكن هذا الذي استطردت فيه ليس كل شيء..

استمر الكاهن:

- لأنه بمجرد أن انتشرت أخبار المنجم في الأبرشيات المتاخمة، توقف العمال عن العمل، ومضوا باستخفاف بانتظار الوقت عندما تنهمر عليهم ثروات عظيمة. وجاب جميع العاطلين هذا القسم من القرية. أصبح السكر، والمشاجرة، والقتال مشكلات مستمرّة يحلها الراهب. كثير من الناس لم يفعلوا شيئا سوى التجوّل عبر الحقول والغابات بحثا عن المنجم. لاحظ الكاهن أيضا أنه بمجرّد خروجه من صومعته، يتجسس عليه الرجال ليروا إذا ما زار منجم الفضة، حتى يسرقوا منه سرّ موقعه.

عندما وصلت الأمور إلى هذا المسار دعا الكاهن الفلاحين إلى اجتماع، وذكر لهم الكثير من المآسي التي جلبها إلى تجمعهم اكتشاف منجم الفضة، وسألهم عمّا إذا كانوا ماضين في السماح لأنفسهم أن تدمّر، أو إذا كانوا يرغبون في أن ينقذوا أنفسهم. ثم سألهم إذا كانوا يريدونه، هو الذي كان كاهنهم، أن يساعد في خرابهم. كان هو نفسه قد قرر أنه لن يكشف لأيّ فرد موقع المنجم، ولن يحاول أبدا أن يمضي في استخلاص أيّ ثروة منه.

ثم سأل المزارعين كيف سيصوتون للمستقبل. إذا رغبوا في مواصلة السعي وراء المنجم منتظرين الثراء، فإنه قد نوى أن يرحل إلى أبعد ما يستطيع بعيدا عنهم، حتى لا تصله أبدا أخبار بؤسهم. ومن ناحية أخرى، إذا تخلوا عن التفكير في منجم الفضة، فسيظلّ بينهم.

"لكن مهما كان ما اخترتموه" كرر الكاهن، "تذكروا أنه لن يسمع أيّ فرد مني أيّ معلومات حول موقع منجم الفضة".

- حسنا.

قال الملك:

- ماذا قرر المزارعون؟
- فعلوا كما طلب منهم الكاهن. وقد فهموا أنه قصد لهم خيرا عندما رغب أن يستمر فقيرا من أجل مصلحتهم. حثوه على الذهاب إلى الغابة، واتخاذ كلّ الاحتياطيات الممكنة لإخفاء عرق المعدن حتى لا يجده أيّ فرد أبدا.
- ومنذ ذلك الحين، ظلّ الكاهن هنا فقيرا، كما الآخرين؟
- نعم، فقيرا مثل الآخرين.
- هل تزوّج، على الرغم من ذلك، وبنى صومعته الجديدة؟
- لا، لم تتوفر لديه الوسائل، وهو يعيش في نفس المكان القديم.
- تلك قصة جميلة.

قال الملك، محنيا رأسه.

الملك الشاب

(1)

كانت تلك هي الليلة السابقة لليوم المحدد لتتويج الملك الشاب، الذي كان يجلس وحيدا في غرفته الجميلة، بعد أن غادرته حاشيته، مُنْحَنِيَّةً رؤوسهم للأرض طبقا للطقوس الاحتفالية لذلك اليوم. كانوا قد لجأوا إلى قاعة القصر الكبيرة، لتلقي بعض دروس أخيرة من أستاذ "الإيتيكيت"، وهناك وجد بعض أفراد الحاشية ممن لديهم أخلاق طبيعية تماما، والتي تعتبر بالنسبة للفرد منهم، لست بحاجة إلى القول، جريمة خطيرة للغاية.

الفتى - لأنه لم يكن سوى مجرّد فتى، كائن بشري في السادسة عشرة من عمره - لم يكن أسفا لمغادرتهم، وسرعان ما ألقى بنفسه للوراء على الوسائد الناعمة لأريكته المطرّزة مع تنهيدة راحة عميقة، راقدا هناك، جامح العينين، فاغر الفم، مثل حيوان غابات "الفون" (أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان)، البني اللون، أو بعض حيوانات صغيرة من الغابات اصطادها الصيادون حديثا.

وبالفعل، كان الصيادون هم من وجدوه. وصلوا إليه بالصدفة، بأطراف عارية، وناي في اليد. كان يتابع قطيعا جلبه راعي ماعز الفقراء، الذي تمثل نفسه دائما ابنا له. كان طفل الملك العجوز مجرّد ابن من ابنته الوحيدة، من زواج سرّي


قطب

مع واحد أقل منها في المكانة - شخص غريب، قال البعض، الذي جعل الأميرة الشابة تحبّه من خلال سحر رائع من عزف عود، في حين تحدّث آخرون عن فنان من "ريميني"، أظهرت له الأميرة الكثير، ربّما كثيرا من الشرف، والذي اختفى فجأة من المدينة، تاركا عمله في الكاتدرائية غير مكتمل.

كان الطفل، قد انتشل بعيدا عن جانب أمه منذ أسبوع مضى، بينما كانت نائمة، واتهم فلاح عادي وزوجته، كانا بدون أطفال، عاشا في منطقة نائية من الغابة، على بعد أكثر من مطيّة يوم واحد من المدينة. الحزن أو الطاعون، كما ذكر طبيب المحكمة، أو كما اقترح البعض، سمّ إيطالي أذيب سريعا في كأس من نبيذ متبل، سفك دم الأميرة، في غضون ساعة من استيقاظها، الفتاة البيضاء التي أنجبته، وبينما الرسول محلّ الثقة وقد عرّى الطفل عبر انحناءة سرجه، انحنى فوق حصانه المتعب، وطرق على باب كوخ بدائي لراعي ماعز، ثم أنزلوا جسد الأميرة إلى قبر مفتوح حفر في فناء كنيسة مهجورة، فيما وراء بوابات المدينة، حيث كان هناك قبر، كما قيل، وجدوا فيه جسما آخر كان ممددا لشاب رائع، أجنبي الجمال، كانت يداه مقيدتين وراء ظهره بحبل معقود، وكان صدره قد تعرّض لجراح حمراء نتيجة الطعن عدّة مرات.

(2)

هكذا، على الأقل، كانت القصة التي تهامس بها الرجال لبعضهم البعض. بالتأكيد كان ذلك هو الملك العجوز، الذي عندما كان على فراش الموت، سواء تحرّك من الندم على ذنبه العظيم، أو لمجرّد رغبة منه في

ألا تزول مملكته عن مسارها، أرسل لاستدعاء الفتى، وفي حضرة المجلس، جعله وريثا له.

وقد بدا منذ اللحظة الأولى من معرفة الفتى، أن أظهر علامات هواه الغريب للجمال الذي كان مقدّرا أن يكون له تأثير كبير على مصيره. أولئك الذين رافقوه إلى مجموعة غرف خصصت لخدمته، تحدثوا في كثير من الأحيان حول صيحة الفرح تلك التي انطلقت من شفتيه عندما رأى ثيابا رقيقة وجواهر ثرية جهّزت من أجله، وتقريبا فرحا شرسا رمى معه جانبي سترته الجلدية الخشنة وعباءة من جلد الغنم. وفي أوقات أخرى، كان يفتقد، حقا، حرّية حياة الغابة الجميلة، وكان دائما عرضة للاستياء من احتفالات البلاط الشاقة التي كانت تشغل زمنا طويلا من كلّ يوم. لكن القصر الرائع، قصر المرح، كما يطلق عليه، الذي وجد نفسه قائدا فيه، بدا له عالـمًا جديدًا حديث الطراز لإبهاجه، وكان بمجرّد أن يتمكن من الهرب من هيئة المجلس، أو غرفة اللقاءات الرسمية، يركض أسفل الدرج العظيم، بأسوده الذهبية وبدرجاته المصنوعة من رخام سمائي ساطع، فيتجوّل من غرفة إلى أخرى، ومن ممرّ إلى آخر، كمن يسعى أن يجد في الجمال ملاذا من ألم، كنوع من نقاهة من مرض.

خلال رحلات الاكتشاف هذه، كما قد يدعوها، وكانت تلك حقا بالنسبة إليه رحلات عبر أرض رائعة، قد يصحبه في بعض الأحيان غلمان القصر النحلاء، بشعرهم الطليق، وبعباءاتهم الطافية، وعصاباتهم الفتية المرفرفة، لكنه حين يكون وحيدا في كثير من الأحيان، كان يشعر من خلال

غريزة سريعة معينة، بما يقرب من الرجم بالغيب، ذلك أن أسرار الفن يستفاد منها سرّا، وأن الجمال، مثل الحكمة، يجب أن تكون صلاته متوحّدة.

وكانت هناك قصص غريبة ارتبطت به في تلك الفترة. قيل إنّ عمدة المدينة الشجاع، جاء لتقديم رسالة خطيب منمقة، نيابة عن مواطني المدينة، قد وقع بصره عليه راكعا بعشق حقيقي أمام لوحة كبيرة كان قد جرى جلبها من مدينة "فينيسيا"، كمن يبشر بعبادة بعض آلهة جديدة. وغاب في مناسبة أخرى عدّة ساعات، وبعد بحث مطوّل جرى اكتشافه في غرفة صغيرة في أحد الأبراج الشمالية من القصر محدّقا، باعتباره شخصا في نشوة، إلى منحوتة يونانية لشخص "آدونيس". وترددت حكاية سريعة شوهد فيها ضاغطا بشفتيه الدافئتين على جبين تمثال من رخام عتيق اكتشف في قاع نهر بمناسبة بناء جسر حجري، وكان منقوشا على التمثال اسم "بيثينيان" (منطقة قديمة من المملكة الرومانية) عبد "هادريان" (إمبراطور روماني). كما أمضى ليلة كاملة في ملاحظة تأثير ضوء القمر على صورة مضيئة لـ"انديميون" (قصيدة لـ"جون كيتس").

(3)

كان بالتأكيد لكلّ المواد النادرة الغالية سحر كبير بالنسبة إليه، وحرص على شرائها، بعث عديدا من التجار، لينشغل بعض من مجموعات صيادي بحر الشمال القساة بالعنبر الخام، وبعض آخر إلى مصر بحثا عن ذلك الفيروز الأخضر الغريب الذي عثر عليه فقط في مقابر الملوك والذي قيل إنه

يمتلك خصائص سحرية، كما أرسل بعضا آخر إلى بلاد "فارس" من أجل السجاد الحريري والآنية الفخارية المرسوم عليها، وآخرين إلى الهند لشراء قماش رقيق شفاف كالشاش والعاج الملوّن وأحجار القمر، وأساور اليشم، وخشب الصندل وطلاء المينا، وشيلان من صوف ناعم.

لكن أعظم ما شغله هو الرداء الذي كان عليه ارتداؤه في حفل تتويجه، رداء منسوج من الذهب، وتاج مرصّع بالجواهر، وصولجان مزيّن بصفوف وحلقات من اللؤلؤ. كان هذا، في الواقع، هو ما يفكر فيه بتلك الليلة وهو مستلقٍ على أريكة فاخرة، مطلا على أزناد غابة الصنوبر، متخيّلا أنها كانت تذوي في مأواها المفتوح. كانت التصاميم معدّة قبل عدّة أشهر بواسطة أيدي أكثر الفنانين شهرة في ذلك الوقت، وكان قد أعطى أوامر إلى الصناع كي يكدحوا ليلا ونهارا لينفذوها، لذلك كان من المقرر أن يبحث العالم كله عن المجوهرات التي من شأنها أن تكون جديرة بعملهم. رأى نفسه في موقف خيالي على مذبح الكاتدرائية العالي في ثياب الملك الجديرة به، بينما لعبت ابتسامة وتريثت حول شفتيه الصبيانيتين، وأضاءت مع بريق ساطع عيون الغابات المظلمة.

نهض من مقعده بعد مرور بعض الوقت، متكئا على سقيفة منحوتة على المدخنة، متطلعا من حوله في الغرفة المضاءة بشكل خافت. كانت هناك مفروشات ثرية تمثل انتصار الجمال معلقة على الجدران. كما شغلت إحدى الزوايا خزانة كبيرة مطعمة بالعقيق واللازورد، مواجهة نافذة بدا من خلالها خزانة من حديد غريب، مع دهان ذهبي جاف معشّق، كما وضعت هناك

بعض كؤوس من زجاج "فينسيا" الدقيق، مع كوب قاتم مجزع. كانت نباتات خشخاش شاحبة مطرزة على غطاء السرير الحريري، كما لو أنها سقطت من أيد متعبة من النوم، وقصبات طويلة من عاج مجوف عارٍ حتى المظلة المخملية، التي تكونت من خصلات كبيرة من ريش نعام متدفق، مثل رغوة بيضاء، تتحوّل إلى لون شاحب فضي بتأثير السقف المكعب. إنّه نرجس ضاحك من برونز أخضر تشكل في مرآة مصقولة فوق رأسه، وامتد على الطاولة وعاء مسطح من حجر أرجواني كريم.

(4)

يمكنه أن يرى إلى الخارج قبة ضخمة من الكاتدرائية، تلوح مثل فقاعة في الأفق عبر بيوت غامضة، وحراس ضجرين يخطون صعودا وهبوطا على شرفة مغمورة بالضباب إلى جوار النهر. كان عندليب يغني بعيدا، في بستان. هفّ عطر ياسمين خافت عبر النافذة المفتوحة. نحى شعره البني المجعد إلى الوراء بعيدا عن جبهته، متناولا عودا، تاركا أصابعه تعزف على أوتاره. تدلى جفناه ثقيلين، وغمره كسل غريب. لم يحدث أبدا أن شعر بمثله من قبل، أو بمثل ذلك الفرح الرائع، لسحر وغموض الأشياء الجميلة.

عندما أعلن حلول منتصف الليل من ساعة البرج، هزّ جرسا، ودخل وصفاؤه، وعرّوه بشكل احتفالي، وهم يسكبون ماء الورد فوق يديه، ويرشّون الزهور على وسادته، ثم غادروا الغرفة بعد لحظات، وسرعان ما راح في نوم عميق.

بينما كان نائما حلم حلما، وهذا هو حلمه..

رأى فيما يرى النائم نفسه واقفا في حجرة عليّة طويلة منخفضة وسط طنين وقعقة كبيرة تلوح في الأفق. أطلّ ضوء نهار هزيل من خلال نوافذ ذات قضبان متصالبة، كاشفا له شخصيات نساجين هزيلة، وهم منحنون على أعمالهم. جثم أطفال ذوو مظهر غث على عارضتي الصليب الصخمة بين المتقاطعين. وبينما كانت المكوكات تندفع عبر السداة رفعوا عارضة خشبية ثقيلة، وحين توقفت المكوكات تركوا العارضات الخشبية تسقط فضغطت الخيوط معا. كانت وجوههم ذابلة من الجوع، وأيديهم النحيفة تهتز وترتعش. تجلس بعض نسوة شاحبات الوجوه أمام طاولة يمارسن عليها الخياطة. تغمر المكان رائحة رهيبة. كان الهواء كريها ثقيلا، وكانت الجدران تنضح وتفيض بالرطوبة.

مضى الملك الشاب إلى أحد النساجين، ووقف إلى جواره، وراح يراقبه.

نظر النساج إليه غاضبا، وتساءل: "لماذا تراقبني؟ هل أنت جاسوس عيّنه سيدنا؟".

تساءل الملك الشاب: "من هو سيدك؟".

صاح النساج بمرارة: "سيدنا! إنه رجل مثلي. في الحقيقة لا يوجد هناك فرق بيننا سوى أنه يرتدي ملابس جميلة بينما أمضي أنا في خرق، وفي حين أنا ضعيف من الجوع فإنه لا يعاني من فرط التغذية".

(5)

قال الملك الشاب: "الأرض حرّة، وأنت لست عبدا لبشر".

عقب النساج: "في الحرب يصنع القوي عبيدا من الضعفاء، وفي السلم يصنع الغني عبيدا من الفقراء. ينبغي أن تعمل حتى تعيش، وهم حين يمنحوننا مثل هذه الأجور الشحيحة، فهذا يعني أن نموت. نحن نكدح من أجلهم طوال اليوم، وهم يكنزون الذهب في خزائنهم، بينما أطفالنا يتلاشون قبل أوانهم، وتصبح وجوه من نحبّ قاسية باردة. نحن نجمع الكروم، ويشرب آخرون النبيذ. نحن نحصد القمح وتظلّ مخازننا فارغة. لدينا أغلال رغم أنه لا توجد عيون تراقبهم، ونحن عبيد رغم أنّ الرجال يدعوننا أحرارا".

تساءل الملك الشاب: "هل هكذا الأمر مع كلّ شيء؟".

أجاب النساج: "هكذا الأمر مع كلّ شيء. مع الشباب مثلما هو مع العجائز. مع النساء تماما مثلما هو مع الرجال. مع الأطفال الصغار تماما مثلما هو مع أولئك الذين يتعثرون في سنوات حياتهم. يطحننا التجّار باستمرار، ويجب أن نسدد مزايداتهم. يمضي القسّ في ركابهم ويخبرنا بتسبيحاته، ولا يهتم أيّ فرد بأمرنا. ومن خلال ممرات الشمس يزحف الفقر مع عيونها الجائعة، والخطيئة بوجهها المرتوي تتبعها من وراء عن قرب. يوقظنا البؤس في الصباح، ويجلس معنا العار ليلا. لكن ماذا تعني هذه الأشياء لك؟ أنت لست واحدا منا. إنّ وجهك شديد السعادة".

استدار النساج بعيدا مقطبا، راميا المكوك عبر اللوح الخشبي، فرأى الملك الشاب أنه كان ملضوما بخيط من ذهب.

استولى على الملك الشاب رعب عظيم، فسأل الناسج: **"ما هو هذا الرداء الذي تنسجه؟"**.

أجاب: **"إنه الرداء الخاص بتتويج الملك الشاب، فماذا يهمك في الأمر؟"**.

صرخ الملك الشاب صرخة مدوية، واستيقظ! كان في نفس غرفته الخاصة، ورأى من خلال النافذة القمر بلون قرص عسل كبير معلقا في الهواء الداكن.

(6)

سقط نائما مرة أخرى وحلم، وكان هذا هو حلمه..

رأى كما يرى النائم أنّه كان مستلقيا على سطح سفينة ضخمة يجري التجديف فيها بواسطة مائة من العبيد. كان يجلس على سجادة بجانبه قائد السفينة. كان أسود كخشب الأبنوس، ذا عمامة حريرية قرمزية. بينما تدلت أقراط كبيرة من فضة من أسفل أذنيه، ويمسك بين يديه زوجا من مقياس عاجي.

كان العبيد عرايا، لا يستر عري كلّ منهم سوى مئزر خشن، وكلّ واحد منهم مقيّد بالسلاسل مع جاره. تسقط الشمس الحارقة عليهم بشكل مباشر، بينما يركض الزنوج ذهابا وإيابا في ممشى مجاور، وهم يجلدون العبيد

بسياط من جلد الحيوان. كانوا يمدّون أذرعهم الهزيلة، ويجدفون بالمجاديف عبر الماء، فيتطاير رذاذ الملح من أنصالها.

وصلوا أخيرا إلى خليج صغير، وبدأوا يسبرون عمق الماء. هبت رياح خفيفة من الشاطئ، وغمرت سطح السفينة وشراعًا عظيمًا مثلث الشكل بغبار أحمر. شنّ ثلاثة من العرب يركبون حميرا برية هجوما، ورموا رماحا عليهم. تناول قائد السفينة قوسا ملونا بيده، وأطلق سهما على أحدهم فأصابه في حلقه. سقط العربي بشدّة على الأمواج، بينما فرّ صاحباه بعيدا. تبع ذلك ظهور امرأة على جمل ترتدي حجابا أصفر اللون تمضي ببطء، وكانت تتلفت وراءها إلى الجسد الميت ما بين حين وآخر.

حالما ألقوا المرساة، وأنزلوا الشراع، انطلق الزنوج لإيقاف السفينة، ففردوا سلم حبال طويلًا مثقلًا وزنه بالرصاص. رماه قائد السفينة على جانب، جاعلا نهايته ترتكز على دعامتين حديديتين. ثم أمسك الزنوج بأصغر العبيد، ورشّوا زيتا على أصفاده، وملأوا أنفه وأذنيه بالشمع، وربطوا حجرا كبيرا حول وسطه. تحرّك العبد هابطا إلى أسفل السلم كمن يتسلل وقد بان عليه الإجهاد، وسرعان ما اختفى في البحر.

ارتفع عدد قليل من الفقاعات حيث غاص. حملق بعض العبيد الآخرين بفضول إلى ذلك الجانب. جلس ساحر سمك القرش في مقدمة السفينة، وهو يعزف برتابة على الطبل.

(7)

صعد الغواص إلى سطح الماء، بعد مرور بعض الوقت، وهو يلهث متشبثا بالسلم، وهناك لؤلؤة داخل يده اليمنى، التقطها الزنوج منه، ودفعوه إلى الخلف، بينما سقط العبيد بقاع السفينة نائمين فوق المجاديف الخاصة بهم.

هبط وصعد نفس الغواص مرارا وتكرارا، جالبا في كلّ مرّة لؤلؤة جميلة. وزنها قائد السفينة، ووضعها في حقيبة صغيرة من الجلد الأخضر.

حاول الملك الشاب أن يتكلم، لكن لسانه بدا أنه التصق بسطح فمه، ورفضت شفتاه أن تتحركا. ثرثر الزنوج مع بعضهم البعض، وبدأوا يتشاجرون بسبب سلسلة من الخرز اللامع. طار غرنوقان حول السفينة في جولات مختلفة.

صعد الغواص إلى سطح الماء للمرّة الأخيرة، وكانت اللؤلؤة التي أحضرها أكثر تميّزا من كلّ لآلئ قرية "أورمس" المتخصصة في صيد اللؤلؤ، لأنّ شكلها كان مثل قمر كامل، وأشد بياضا من نجمة الصباح. لكن وجهه كان شاحبا بشكل غريب، وسرعان ما سقط على سطح السفينة، وسال الدم من أذنيه وأنفه. ارتجف قليلا، ثم سكنت حركته. هزّ الزنوج أكتافهم بلا مبالاة، وألقوا جثمانه في البحر.

ضحك قائد السفينة، بسط يده، وتناول اللؤلؤة، وحين رآها ضغطها على جبهته، وانحنى، قائلا: "سوف تكون هذه من أجل صولجان الملك الشاب".

وأشار إلى الزنوج كي يسحبوا المرساة. وحين سمع الملك الشاب ذلك صرخ صرخة عظيمة، واستيقظ، ورأى عبر النافذة أصابع الفجر الرمادية الطويلة تتصيّد النجوم المتلاشية.

سقط الملك الشاب في النوم مرة أخرى، وراح يحلم، وكان هذا هو حلمه..

رأى كما يرى النائم أنه كان يتجوّل عبر غابة معتمة، تتدلى من أشجارها فاكهة غريبة، مع زهور بديعة سامة. هسهست الحيّات في وجهه عندما كان يمرّ إلى جوارها، وطارت الببغاوات البهيّة صادحة من فرع إلى آخر. ثم رأى سلاحف ضخمة راقدة على الطين الساخن. وكانت الأشجار مليئة بالقردة والطواويس.

(8)

استمر الملك الشاب في طريقه حتى وصل إلى مشارف الغابة، وهناك رأى كثرة هائلة من رجال يكدحون في قاع نهر جاف. كانوا يتدفقون إلى الجرف مثل النمل. حفروا حفرا عميقة في الأرض، ونزلوا فيها. شقّ بعضهم الصخور بفؤوس كبيرة، وقام آخرون ملتمسين طريقهم في الرمال. مزقوا نباتات الصبار من جذورها، وداسوا على أزهارها القرمزية. هرولوا، مناديا كلّ منهم الآخر، ولم يكن هناك أيّ رجل خامل.

من ظلام كهف "الموت"، شاهدهم "الطمع". قال "الموت": "لقد مللت، امنحني ثلثهم، واسمح لي بالذهاب".

لكن "الطمع" هزّ رأسه، وأجاب: "إنهم عبيدي".

سأله "الموت": "ماذا تمتلك في يدك؟".

أجاب "الطمع": "لديّ ثلاث حبّات ذرة، وماذا لديك؟".

صاح "الموت": "امنحني إحداها، كي أزرعها في حديقتي. فقط واحدة منها، وسأمضي بعيدا".

قال "الطمع" مخفيا يده في أعماق ملابسه: "لن أمنحك أي شيء".

ضحك "الموت"، وتناول كأسا، وغمسها في بركة ماء، فبزغ من الكوب نبات "البرداء"، ومرّ "الموت" عبر الجميع، فلاحظ أن ثلثهم يرقد ميتا. تبعه ضباب بارد، بينما تركض ثعابين الماء بجانبه.

عندما رأى "الطمع" أن ثلث الجموع كان ميتا، ضرب على صدره وبكى. ضرب صدره الناحل، صارخا بصوت عالٍ: "لقد اغتلت ثلث عبيدي. لتمض. هناك حرب في جبال بلاد التتار، حيث يدعوك ملوك كلّ جانب. لقد اغتال الأفغان الثور الأسود، ويسيرون إلى المعركة. لقد تعرضوا للضرب على دروعهم مع رماحهم، وقد ارتدوا خوذات من حديد. ماذا يمثل الوادي الخاص بي لك كي تتلكأ فيه؟ فلتمض، ولا تعد إلى هنا ثانية".

(9)

أجاب "الموت": "كلا، طالما لم تمنحني حبة ذرة، فلن أذهب".

لكن "الطمع" أغلق يده، وجزّ على أسنانه، متمتما: "لن أمنحك أي شيء".

ضحك "الموت"، وتناول حجرا أسود، ورماه إلى الغابة، وجاءت من غابة "الشكران" البرية حمى في رداء من لهب. ومرّت من خلال الجميع، ومسّتهم، فمات كلّ من مسّته. وذبل العشب تحت قدميها أثناء سيرها.

ارتجف "البخل"، ووضع رمادا على رأسه، وصاح: "أنت قاسٍ. أنت قاسٍ. هناك مجاعة في مدن الهند المسوّرة. وقد آل تشغيل صهاريج "سمرقند" إلى جفاف. وهناك مجاعة في مدن مصر المسوّرة، بعد أن غزاها الجراد من الصحراء. ولم يفض نهر النيل فيغمر الماء ضفتيه، وقد لعن الكهنة "إيزيس" و"أوزوريس". فلتمض أنت إلى أولئك الذين يحتاجون إليك، واترك لي خدمي".

أجاب "الموت": "كلا. لكن طالما أنك لم تمنحني حبة الذرة، فلن أمضي".

صاح "البخل": "لن أمنحك أي شيء".

ضحك "الموت" ثانية، وصفر من خلال أصابعه، فجاءت امرأة طائرة في الهواء. كان الطاعون مكتوبا على جبهتها، ودار حولها حشد من نسور عجاف. غطت الوادي بجناحيها، ولم تترك إنسانا على قيد الحياة. وهرب "الطمع" من خلال الغابات صارخا، وقفز "الموت" على حصانه الأحمر، وركض به بعيدا، وكان ركضه أسرع من الريح.

تسلل التنين وأشياء أخرى ذات قشور خارجة من الوحل أسفل الوادي، وجاء ابن آوى يخبّ على طول الرمال، مستنشقا الهواء من أنفه.

وبكى الملك الشاب، قائلا: "من هم هؤلاء الرجال؟ وعن أي شيء يبحثون؟".

(10)

أجاب أحد الواقفين وراءه: "كلّ ذلك للحصول على ياقوت من أجل تاج الملك".

بدأ الملك الشاب في الالتفات حوله، فرأى رجلا يلبس كحاج، ممسكا بمرآة من فضة في يده.

ازداد شحوبه، وهو يسأل: "من أجل أيّ ملك؟".

أجاب الحاج: "انظر إلى هذه المرآة، وسوف ترى".

تطلع إلى المرآة، فرأى وجهه، فأطلق صرخة عظيمة، واستيقظ، وكان ضوء الشمس الساطع يتدفق إلى غرفته، ومن أشجار الحديقة والمنتزه سمع صوت الطيور تغني.

جاء الياور وكبار رجال الدولة، وسجدوا له، وأحضر الوصفاء رداءه المنسوج من الذهب، ووضعوا التاج والصولجان أمامه.

نظر الملك الشاب إليهم، وكانت طلعتهم بهيّة. أكثر بهاء ممّا كانوا عليه في أيّ وقت سبق أن رآهم فيه من قبل. لكنه تذكّر أحلامه، فقال لقادته: "خذوا هذه الأشياء بعيدا لأني لن ألبسها".

كان رجال البلاط مندهشين، ومنهم من ضحك، لأنّهم اعتقدوا أنه يهذر.

تكلم مرّة أخرى بشكل صارم، قائلا: "أبعدوا هذه الأشياء وأخفوها عن ناظري. وعلى الرغم من أنه يوم تتويجي، فإنني لن أرتديها، لأنّ نسج هذا

الرداء تسبب في ظهور الحزن وامتداد الألم إلى الأيدي البيضاء. هناك دم في قلب الياقوت، وموت في قلب اللؤلؤة". وحكى لهم أحلامه الثلاثة.

عندما سمع رجال الحاشية ذلك، نظروا إلى بعضهم البعض، وتهامسوا قائلين: "من المؤكد أنه جنّ، فما الحلم إلا مجرّد حلم، وما الرؤيا إلا مجرد رؤيا، تلك أشياء ليست حقيقية، ولا ينبغي للمرء أن يعوّل عليها. وماذا ينبغي علينا أن نفعل مع أولئك الذين يكدحون من أجلنا؟ أينبغي ألا يأكل الإنسان خبزا حتى يقابل الزارع، وألا يشرب نبيذا حتى يتحدث مع جامع الكروم؟".

(11)

وتحدّث الياور إلى الملك الشاب، قائلا: "سيدي، إنني أصلي من أجل أن تدع جانبا تلك الأفكار السوداء، وأن ترتدي رداء مناسبا، وأن تضع هذا التاج على رأسك. إذ كيف يعرف الشعب أنك الملك، إذا لم يكن لديك ثياب الملك؟".

نظر الملك إليه متسائلا: "هل الأمر هكذا حقا؟ ألن يعرفوني إذا لم أرتدِ ثياب الملك؟".

صاح الياور: "إنهم لن يعرفوك، يا سيدي".

أجاب: "لقد فكرت أن يكون هناك رجال ملكيون. لكن ربّما الأمر كما تقول. وحتى الآن، فإنني لن أرتدي هذا الرداء، ولن أضع هذا التاج عندما أذهب إلى القصر، ماضيا فيما عزمت عليه".

وطلب منهم جميعا أن يتركوه، بينما احتفظ بوصيف واحد كرفيق، فتى أصغر منه بعام واحد. أبقى عليه ليخدمه، وحين حمم نفسه بمياه نقية، فتح خزينة عظيمة ملوّنة، وأخذ منها جلبابا فضفاضا وعباءة خشنة من جلد الغنم كان قد ارتداها عندما شاهد من جانب التلال ماعزا أشعث لراعي ماعز. ارتدى تلك الملابس، وأمسك في يده عصا الراعي البدائية.

فتح الوصيف عينيه الزرقاوين الكبيرتين في عجب، وقال وهو يبتسم: **"سيدي، إني أرى الرداء والصولجان، لكن أين التاج؟"**.

مدّ الملك الشاب يده، والتقط كتلة متسلقة من ورد بري على الشرفة، وثناها، جاعلا منها دائرة، ثم وضعها على رأسه، قائلا: **"سيكون ذلك تاجي"**.

هكذا عبر غرفته إلى القاعة الكبرى، حيث ينتظره النبلاء.

(12)

ابتهج النبلاء برؤيته، وصاح بعض منهم: **"سيدي، الشعب ينتظر ملكه، وأنت جعلت منهم مجرّد متسولين"**. وغضب آخرون وقالوا: **"إنه يجلب العار على دولتنا، لذلك لا يستحق أن يكون مليكنا"**. لكنه لم يجبهم بأيّة كلمة، واستمر في عبوره، هابطا درج الرخام اللامع، ماضيا عبر البوابات البرونزية، ثم امتطى حصانه متجها نحو الكاتدرائية، والوصيف الصغير يجري إلى جانبه.

ضحك الناس وقالوا: "ها هو الملك الغبي، مضى راكبا". وسخروا منه.

أمسك الملك عنان حصانه، وقال: "كلا أنا الملك"، وحكى لهم أحلامه الثلاثة.

عندئذ خرج رجل من الحشد، تحدّث معه بمرارة قائلا: "سيدي، ألم تعلم أنه من ترف الأغنياء تأتي حياة الفقراء؟ إننا نرعى أبّهتك الخاصة، كما أن عيوبك تمنحنا خبزا. وكي نكدح من أجل سيد صعب لهو شيء مرير، لكن ألا يكون لنا سيد نكدح من أجله أمر ما يزال أشد مرارة. أتظن أن الغربان سوف تطعمنا؟ وما هو العلاج الذي لديك لهذه الأشياء؟ هل ستقول للمشتري: "إنك لن تدفع أكثر من ذلك"، وتقول للبائع: "إنك لن تبيع إلا بهذا السعر". لا أظن ذلك. لذلك ينبغي أن تعود إلى قصرك وترتدي ثوبا كتانيا أرجوانيا جميلا. ماذا لديك لتفعله معنا، ومع ما نعاني؟".

تساءل الملك الشاب: "أليس الأغنياء والفقراء أخوة؟".

أجاب الرجل: "نعم، واسم الأخ الغني هو قابيل".

امتلأت عينا الملك الشاب بالدموع، وركب حصانه وسط غمغمات الناس، وتزايد خوف الوصيف الصغير، فتركه.

وعندما وصل إلى بوابة الكاتدرائية الكبيرة، رفع الجنود سلاحهم، قائلين: "عمّ تبحث هنا؟ لا يدخل من هذا الباب سوى الملك".

(13)

ومض وجهه بالغضب، فقال لهم: "أنا الملك".

ونحّى سلاحهم جانبا، ودخل. عندما رآه المطران العجوز مقبلا في ثوب راعي ماعز، انتفض من كرسي المطرانية متعجبا، وذهب لمقابلته، قائلا: "يا بني، هل هذه ملابس ملك؟ وبأيّ تاج سوف أتوّجك؟ وأيّ صولجان سأضعه في يدك؟ بالتأكيد ينبغي أن يكون هذا يوم فرح بالنسبة لك، وليس يوم تنزل فيه من مكانتك".

قال الملك الشاب: "هل ينبغي أن يرتدي الفرح ما طرزه الحزن؟".

وحكى للمطران أحلامه الثلاثة. عندما سمعها المطران قطب حاجبيه، قائلا: "يا بني، أنا رجل عجوز، في الشتاء من أيامي، وأعرف أنّ كثيرا من أمور شريرة تحدث في جميع أنحاء العالم. يهبط اللصوص الشرسون من الجبال، فيخطفون الأطفال الصغار، ويبيعونهم إلى المغاربة. تكمن الأسود في انتظار القوافل، لتقفز على الجمال. يقطف الخنزير البري جذور الذرة في الوادي، وتنخر الثعالب الكرمات على التل. يتحيّن القراصنة الفرصة على شاطئ البحر ليحرقوا سفن الصيادين، ويسلبوا شباكهم. يعيش مرضى الجذام في مستنقعات مالحة، لديهم فيها بيوت من غابات مضفرة، دون أن يقترب منهم أحد. يتجوّل المتسولون عبر المدن، ويتناولون طعامهم مع الكلاب. هل يمكنك أن توقف تلك الأشياء عن الحدوث؟ هل يمكنك أن تأخذ مرضى الجذام كرفقاء نوم، وتعيّن المتسول في مجلسك؟ هل يقوم الأسد

بمزايدة؟ وهل سيطيعك الخنزير البري؟ أليس هو من جعل البؤس أكثر حكمة منك؟ وفي الختام أثني عليك، ليس من أجل ما فعلت، لكنني أعرض عليك أن تعود إلى القصر وأن تجعل وجهك سعيدا، وترتدي رداء يليق بملك، وبالتاج الذهبي سوف أتوّجك، وسأضع صولجان الياقوت في يدك. أما بالنسبة لأحلامك، فلا تفكر فيها أكثر من ذلك. يعتبر عبء هذا العالم كبيرا جدا كي يتحمله رجل واحد، وحزن العالم شديد الثقل كي يعاني منه قلب واحد".

(14)

قال الملك الشاب: "هل تقول إنّ التتويج سيتم في هذا المكان؟".

ومضى عبر المطران، وصعد السلالم إلى المذبح، ثم توقف أمام صورة المسيح.

وقف أمام صورة المسيح، وعلى يمينه وعلى يساره كانت هناك نماذج سفن رائعة من ذهب، وكأس مع نبيذ أصفر، وقارورة بها زيت مقدّس. سجد أمام صورة المسيح، وكانت هناك شموع كبيرة زاهية تحترق وسط مزار مرصّع بالجواهر، ودخان البخور يرتفع متكوّرا في شكل لولبي من أكاليل زهور زرقاء عبر القمّة. أحنى رأسه في صلاة خاشعة بينما انسحب الكهنة بعيدا عن المذبح في أرديتهم الرسمية.

فجأة سمع صوت اضطرابات عنيفة قادمة من الشارع بالخارج، ودخل النبلاء بسيوف مسحوبة، منكسة علامات الشرف، بدروع من فولاذ

مصقول، صائحين: "أين حالم الأحلام هذا؟ أين الملك، هذا الذي تزيًّا كشحاذ، هذا الصبي الذي جلب العار لدولتنا؟ سنقتله بالتأكيد لأنه لا يستحق أن يحكمنا".

أحنى الملك الشاب رأسه مرّة أخرى، وصلى، وانتفض حين أنهى صلاته، واستدار ناظرا إليهم بأسى.

لكن عجبا! فقد تدفق عليه تيار من ضوء الشمس من خلال النوافذ الملونة، ودارت أشعتها من حوله ناسجة رداء كان أكثر إنصافا من الرداء الذي طرّز لسعادته. أينعت المواد الميتة، وبزغت زنابق عارية أشد بياضا من اللؤلؤ، وازدهر كرسي العرش، وبدت ورود عارية أكثر إحمرارا من الياقوت. وكان نبات الليلاك أشد بياضا من اللآلئ البديعة، وكانت سيقانها أشد بياضًا من الفضة، وكانت الورود أكثر احمرارا من الياقوت، وأوراقها من ذهب مطروق.

كان واقفا هناك في ثياب ملك، وانفتحت بوابات المزار المرصّع بالجواهر، وأشرق نور فضي عجيب من كريستال وعاء القربان متعدد الأشعة. وقف هناك في ثوب ملك حسنا المظهر، ومجد الله يملأ المكان، وبدأ الكهنة يتحرّكون في كواهم المنحوتة. وقف أمامهم في ثوب ملك حسنا المظهر، وانطلقت موسيقى عازفي البوق، حين نفخ عازفو الأبواق في أبواقهم، وغنى الأولاد.

(15)

سقط الناس على ركبهم في رهبة، وأغمد النبلاء سيوفهم، وأعلنوا البيعة، وازداد شحوب وجه المطران، وارتعشت يداه، وصاح جاثيا أمامه: "لقد توّجك من هو أكبر مني".

وهبط الملك الشاب من أعلى المذبح، ماضيا إلى المقر الرئيسي وسط الشعب. لكن لم يجرؤ رجل على النظر إلى وجهه، لأنّه كان مثل وجه ملاك.

حكاية غريبة

ذات ليلة شتوية، كنت أتمشّى مع صديقي القديم "موراكامي" في منطقة "جينزا" التي تعتبر من أهم مناطق طوكيو الخاصة بالنواحي التجارية ووسائل التسلية، حين قال:

- جاءت رسالة من "شيكو" منذ أيام، وهي ترسل لك تحياتها.

بعد أن قصّ عليّ "موراكامي" أخبار أخته الأصغر، التي تعيش الآن في "ساسبو"، رجع كلّ شيء بغتة، كما لو أنني تذكّرته بشكل خاص:

- "شيكو سان" بحالة طيّبة، كما آمل.

- نعم، لقد أصبحت بحالة طيّبة منذ فترة. لقد عانت، عندما كانت في طوكيو، إعياء عصبيّا حادا، لكنك عرفت بذلك؟

- لقد عرفت به. لكن سواء أكان انهيارا عصبيا فعلا، أم لا ...

- إذن، فأنت لم تعرف؟ حين رجعت إلى البيت في ذلك اليوم، بدت كما لو كانت قد فقدت وعيها بالكامل. عندما أمعنت النظر رأيت أنها كانت تبكي، وكانت تضحك . . كانت تلك حكاية غريبة.

- حكاية غريبة؟

دفع "موراكامي" بابا زجاجيا لمقهى فاتحا إيّاه، قبل أن يجيب. جلسنا متواجهين إلى مائدة تمكننا من مراقبة حشد المارة بالجوار.

- حكاية غريبة. لا بد أنني لم أخبرك بها من قبل. لكنها أخبرتني بها قبل أن تذهب إلى "ساسبو".

كما تعرف، فإنّ زوج شيكو ضابط بحري، كان قد استقر في منطقة البحر الأبيض المتوسط أثناء الحرب الأوربية. وقد جاءت "شيكو" إلى منزلي خلال فترة غيابه. وعندما بدأت الحرب، جاء وقت اندلع فيه إعياء "شيكو". في ذلك الوقت، كانت تأتي رسالة من زوجها كلّ أسبوع، وربّما حدث ذلك فجأة، لأنّ الرسائل توقفت في نفس الوقت. على أيّة حال، كان زوجها قد ارتحل بعد ستة أشهر من زواجهما، لذلك فربّما حصلت على كثير من البهجة من رسائله، لو لم أكن قاسيا بما فيه الكفاية لأعذبّها بسببها.

ذات يوم خلال تلك الفترة، أتذكّر أنّه كان عيد الإمبراطور، وذلك يوم 11 فبراير، عيد المؤسسة الوطني، كانت تمطر منذ الصباح، وكان العصر شديد البرودة، لكن "شيكو" أخبرتنا بأنّها تزمع الذهاب إلى منطقة "كاماكيرا" لزيارة بعد طول غياب لصديقة مدرسة وزوجة رجل أعمال كانت تعيش هناك. أخبرتها، أنا وزوجتي، مرارا وتكرارا أنّها رغم ما قالته حول الزيارة، فليست هناك ضرورة للذهاب في ذلك اليوم الممطر على امتداد ذلك الطريق إلى كاماكيرا، وحاولنا أن نجعلها تنتظر حتى اليوم التالي. لكن "شيكو" أصرّت بعناد على الذهاب في ذلك اليوم. أخيرا، أصبحت متوترة، وحملت أشياءها، ثم خرجت قائلة وهي تنصرف:

- قد أمضي الليلة هناك، حسبما تمضي الأمور، وأعود غدا صباحا.

لكنها بعد فترة قصيرة، رجعت إلى البيت، شاحبة الوجه، مبللة تماما بالمطر. حين سألناها، قالت إنّها مشت من محطة سكة الحديد المركزية إلى موقف ترام "هورييباتا" دون أن تحتمي بشمسيتها. ثم أخبرتنا لماذا فعلت ذلك.. وتلك هي الحكاية الغريبة.

عندما وصلت شيكو إلى محطة سكة الحديد المركزية.. لا، بل حدث قبل هذا، أن ركبت تراما، لكن للأسف كانت كلّ المقاعد مشغولة. وبينما كانت متعلقة بطوق بالترام، قالت إنّه أمكنها أن ترى مشهد محيط منعكسا بشكل باهت على نافذة زجاجية أمامها. كان الترام عندئذ يعبر "جينوشو"، لذلك لم يكن ممكنا بالطبع أن ينعكس على الزجاج أيّ شيء مثل المحيط. وكان ما زال في إمكانها أن ترى الناس بالخارج في الشارع أثناء ارتفاع وهبوط الأمواج. وحين ضربت الأمطار زجاج النافذة بشدّة، أمكنها أن تميّز الأفق على المدى. حكما بكلماتها، فربّما كانت لديها مشكلة في أعصابها عند هذه النقطة.

ثم دخلت إلى محطة سكة الحديد المركزية، وعند المدخل انحنى فجأة حمّال لها، وهو يقول:

- هل ما زال السيّد بحالة طيبة؟

كان ذلك غريبا بالتأكيد. لكن الأغرب أنّ شيكو لم ترَ أيّ شيء غريب في سؤال الحمّال، حتى أنها أجابته:

- أشكرك للسؤال، لكنني لم أعد أعرف ما حدث مؤخرا، منذ أن توقفت رسائله عن الوصول.



أجاب الحمّال:

- في هذه الحالة، سأذهب لأرى السيد.

أيّا كان ما قاله الحمال، فقد كان زوجها، بعيدا تماما في منطقة ما من البحر الأبيض المتوسط. لكن عندما خطرت لشيكو تلك الفكرة، تيقنت أنّ هناك شيئا جنونيا في كلمات هذا الحمّال الغريب. وقبل أن تسأله عن أيّ شيء، انحنى الحمال بخفة واختفى وسط زحام البشر. بحثت عنه بشدّة، لكنها لم تستطع أن تكتشف مكانه ثانية. أو بالأحرى، لعدم قدرتها على تحديد مكانه، كانت غير قادرة على التذكّر بشكل كامل وجه ذلك الذي كان واقفا أمامها. لذلك، وفي نفس الوقت الذي لم تستطع فيه تحديد مكان الحمّال، بدا كل الحمّالين كأنّهم هو، ورغم أن "شيكو" لم تستطع أن تفهم السبب، إلا أنها شعرت بارتياب في أنّه ما زال قريبا، يراقبها. خفتت إرادة الذهاب إلى كاماكيرا، وشعرت "شيكو" بعدم راحة من وجودها حيث كانت وهربت من محطة القطار مذهولة، ورجعت خلال انهمار المطر، دون أن تفتح مظلتها، فعانت من حمّى شديدة خلال الأيام الثلاثة التالية، دون أن تقول شيئا سوى عبارات كانت على ما يبدو موجهة إلى زوجها: "رجاء، سامحني، أيها العزيز"، أو "لماذا لم تعد؟". لكن لم تكن تلك هي العاقبة الوحيدة لسفرتها إلى كاماكيرا، إذ إنّها بعد شفائها من نزلة البرد، كانت كلما سمعت كلمة حمّال، تظلّ مكبوحة بقيّة اليوم، فاتحة فمها بمشقة. وبعد ذلك، حدث أمر سخيف.. حين رأت، ذات مرّة، صورة حمّال على لافتة وكالة شحن، رجعت إلى البيت، دون تنفيذ أيّة فكرة خططتها للذهاب.

على أيّة حال، انحسر خوفها من الحمّالين إلى حدّ بعيد، بعد ما يقرب من شهر. وطبقا لرواية زوجتي، فإنّها ضحكت، قائلة:

- يا أختي، كان هناك حمّال له وجه قط في قصة "ثلج أحمر" لـ"كيوكا"، التي نشرت في مارس 1902. لا بد أن قراءة تلك القصة، هي التي جعلتني أرى الأشياء بغرابة.

لكن ذات يوم من مارس كما أعتقد، كانت خائفة من الحمّال مرّة أخرى. ومنذ ذلك الوقت، وحتى رجوع زوجها إلى البيت، لم تذهب شيكو أبدا إلى محطة سكة الحديد لأيّ سبب. وهذا هو السبب في أنها لم تذهب لتراك عند رحيلك إلى كوريا، خوفا بطبيعة الحال من الحمّالين.

حدث ذات يوم من مارس كما أعتقد، عندما رجع زميل لزوجها بعد أن أمضى سنتين في أمريكا، أن غادرت شيكو البيت في الصباح كي تكون هناك عند وصوله، لكن حيّنا المزدحم، كما تعرف، نادرا ما يدع الناس تمرّ، حتى أثناء النهار. كان هناك بائع حزمة من دواليب هواء - التي تعتبر لعبة أطفال مؤلفة من دولاب ورقي ملون، مثبت بدبوس على رأس قضيب، بحيث تدور مع الريح - جالسا، كما لو كان مهجورا، بجانب الممر الوحيد. وكان ذلك يوما غائما مع ريح ضعيفة، لذلك فإنّ ورق دواليب الهواء الملون التصق بالحزمة، وكانت كلها تلف بشكل سريع جدا. وأثار هذا المشهد قلق شيكو.

وبينما كانت تنظر على امتداد الطريق، رأت فجأة رجلا يرتدي قبعة حمراء كان ظهره إليها. كان ذلك، دون شك، بائع دواليب الهواء يدخن، أو يفعل شيئا آخر. لكنها ما إن رأت لون القبعة الأحمر، حتى أصبح لديها هاجس بأنّ شيئا غير عادي سيحدث حين تصل إلى محطة السكة الحديد. كان ذلك كافيا عندئذ كي ترغب في العودة.

لكن عندما وصلت إلى المحطة، مضى كلّ شيء لحسنا الحظ كالمعتاد، حيث تمّ الترحيب بالقادم. وبينما تجمعت المجموعة في المقدمة عن البويّب مع زميل الزوج، قال شخص ما وراءها:

– يقول السيد إنه جرح في ذراعه اليمنى، ولذلك لا يستطيع كتابة الرسائل.

التفتت "شيكو" بسرعة لتنظر، لكن لم يكن هناك أيّ حمّال وراءها. لم يكن هناك أيّ فرد، باستثناء زوجة الضابط البحري، التي عرفتها بمجرد النظر. لم يكن ممكنا أبدا أن تقول زوجة الضابط فجأة مثل هذا القول، لأنّ ذلك الصوت كان غريبا، إذا أمكن لأيّ شيء أن يوصف بأنه غريب. على أيّة حال، قالت "شيكو" إنّها كانت سعيدة، لأنّه لم يكن هناك أيّ حمّال على مرمى البصر. خرجت من البويب، وانضمت إلى الآخرين، لرؤية انتقال زميل زوجها إلى سيارة كانت تنتظره عند مدخل السيارات. في ذلك الوقت، سمعت بوضوح صوتا من وراءها، يقول:

– أيتها السيدة، يقول السيد إنه سيعود الشهر القادم.

استدارت "شيكو" مرّة أخرى لتنظر، لكن لم يكن هناك أيّ حمّال.. بل مجرّد أفراد المجموعة التي كانت معها. لكن بينما لم يكن هناك أيّ حمال وراءها، كان هناك اثنان أمامها، ينقلان أمتعة الضابط إلى السيارة. لسبب ما نظر أحدهما إليها عندئذ، وابتسم بغرابة ابتسامة عريضة. حين رأت شيكو ذلك، تغيّر لونها بما فيه الكفاية، لدرجة أنّ من كانوا حولها لاحظوا ذلك، كما قالت. هدّأت نفسها على أيّة حال، ورأت أنّ هناك حمالا واحدا ينقل أمتعة، في حين اعتقدت أنها قد رأت اثنين. ولم يكن الكائن أمامها مشابها على الإطلاق لذلك الذي ابتسم لها. رغم أنّها كانت تنظر إليه، فإنّ وجه الحمال الذي ابتسم لها، أصبح مرة أخرى غائما في ذاكرتها. ومع ذلك، فقد حاولت بشدة أن تتذكّر، فكان كل ما ورد إلى ذهنها وجها عديم الشكل مغطى بقبعة حمراء. كانت تلك هي الحكاية الغريبة الثانية، التي سمعتها من "شيكو".

بعد ما يقرب من شهر - كان ذلك قرب تاريخ ذهابك إلى كوريا كما أعتقد - رجع زوجها فعلا إلى البيت. بدت هناك حقيقة، لافتة للانتباه، لأنّه لم يكن قادرا على الكتابة إليها لفترة، لأنّ ذراعه اليمنى كانت مجروحة. في ذلك الوقت، دأبت زوجتي مع آخرين على إغاظتها، قائلة:

- لقد فكرت شيكو سان كثيرا في زوجها لدرجة أنها استنتجت ما حدث.

بعد عدّة أسابيع تالية، ذهبت شيكو وزوجها إلى موقعه الجديد في "ساسبو"، وعندما قرأت رسالتها، التي كتبتها في الطريق، اندهشت أن أجد فيها حكاية ثالثة غريبة.

حدث ذلك، بينما كانت "شيكو" وزوجها في محطة سكة الحديد المركزية، حين أبرز الحمّال الذي تعامل مع أمتعتهما، وجهه من نافذة القطار، الذي بدأ يتحرك فعلا، كمجاملة أخيرة. اربدّ وجه زوجها فجأة، حين لمح الحمّال، بعد ذلك، بدا محرجا، وأخبرها بهذه الحكاية.. بعد أن رسَوَا على اليابسة في مارسيليا، ذهب إلى كافيتريا مع بعض الزملاء، وفجأة جاء حمّال ياباني إلى مائدتهم، وسأله على نحو مألوف كيف كان حاله. لم يكن هناك، بالطبع، أيّ وسيلة لحمّال ياباني كي يتجوّل في شوارع مارسيليا. لكن لسبب ما لم يعتقد زوجها أنّ ذلك شيء غير عادي، وأخبره عن ذراعه المجروحة، وعودته الوشيكة. لكن عندما قلب أحد زملائه السكارى كأس كونياك، تطلع الزوج حوله مليّا، وهو منذهل، لكن الحمال سرعان ما اختفى من الكافتيريا. تعجّب الزوج من تفسير ما حدث، مع أن عينيه كانتا مفتوحتين على سعتهما، فقد كان من الصعب أن يقول ما إذا كان ذلك حلما أم حقيقة. علاوة على ذلك لم يعطِ زملاؤه أيّة إشارة بأنهم لاحظوا مجيء الحمّال. وهكذا قرر أخيرا، أن لا يذكر الحادث لأيّ شخص. عرف بعد عودته إلى اليابان، أنّ شيكو صادفت مرتين حمّالا مثيرا للشكّ. تساءل عمّا إذا كان هو نفس الحمّال، الذي قابله في مارسيليا؟ لكن ذلك بدا أكثر شبها بقصص الأشباح. كما اعتقد أيضا بأنه سيسخر منه لكثرة تفكيره في زوجته، بينما هو في مهمة تخصّ الشرف، وهكذا ظلّ صامتا. لكن الآن، بعد أن رأى الحمّال يبرز وجهه، لم يكن هناك أيّ شك في أنّه هو ذلك الرجل، الذي دخل الكافيتريا في مارسيليا.

بعد أن أنهى الزوج حكايته، جلس صامتا للحظة، ثم تحدّث بشكل مضطرب، وبصوت منخفض:

- أليس ذلك غريبا؟ رغم أنني عرفت أنه ليس هناك أيّ اختلاف بينهما، فإنني لا أستطيع تذكّر وجه الحمال بوضوح، مهما حاولت. لكن بمجرد أن شاهدته عبر النافذة، عرفت أنه هو.

حين وصل "موراكامي" إلى تلك النقطة من حكايته، دخل إلى المقهى ثلاثة أو أربعة بدوا أصدقاء له، واقتربوا من المائدة، وحيّوه بأصوات جهورية. نهضت، قائلا:

- من الأفضل أن أستأذن الآن. سأتصل بك ثانية، قبل أن أعود إلى كوريا.

* * *

عندما أصبحت خارج المقهى بعد أن سمعت ذلك، تنفست الصعداء، وفهمت أخيرا السبب في أنّ شيكو قبل ثلاث سنوات نكثت بوعدها مرّتين بأن تقابلني سرّا في محطة سكة الحديد المركزية، ولذلك أرسلت إليّ رسالة غفلا، أوضحت فيها أنها ستظلّ دائما زوجة عفيفة.

المؤلفون الوارد ذكرهم

الأمريكي وليام كارلوس وليامز William Carlos Williams:



وليام كارلوس وليـامز (1883-1963) هو الطبيب الكاتب، الحائز علـى جـائزة البـوليتزر. ولـد في رزرفورد بنيو جيرسي بالولايـات المتحدة الأمريكية. بعد تخرجه مـن كليـة الطـب جامعـة بنسـلفانيا، تـدرّب في عـدد مـن المـدن حتـى استقر في رزرفورد في عـام 1909. قاد الطبيـب وليـامز ثـورة الشـعر الأمريكي بتمرده على التقاليـد المتوارثـة وإبـراز براعتـه في التعامـل باللغـة الإنجليزية "الأمريكية"، حتى اعتبر واحدا مـن الشـعراء الأكثـر أصـالة في القرن العشرين.

تعكس قصة "استخدام القوة" التي كتبها عام 1932 استفادته من معطيات عمله كطبيب في الإبداع الأدبي، الذي بدت فيه النزعة الإنسانية دانية مهيمنة.

الأسباني بدرو آنطونيو دي آلاركون Pedro Antonio de Alarcon:



بدرو آنطونيو دي آلاركون (1833-1891) ولد في جيدكس قرب غرناطة بأسبانيا. وخدم في عام 1859 في عملية عسكرية بالمغرب، وحصل على أول اعتراف أدبي مع "يوميات مشاهد للحرب الأفريقية (1859- 1860)". اشتهر كواحد من أهم روائيي القرن التاسع عشر بما امتاز به من استبصارات عميقة للنفس الإنسانية، وله العديد من الروايات الناجحة، إضافة إلى ثلاثة كتب رحلات وكثير من القصص القصيرة والمقالات.

الأمريكي ف. سكوت فيتزجرالد Scote Fitzgerald:



هو من مواليد مدينة سانت بول بولاية مينيسوتا الأمريكية (1896 – 1940). التحق بأكاديمية سانت بول، ثم بالجيش عام 1917، ولاقتناعه بأنه سوف يموت في الحرب، سرعان ما كتب أول رواية رومانسية له. تمّ توزيعه في يونيو عام 1918 إلى معسكر شريدان قرب مونتجمري بولاية آلاباما ، حيث وقع هناك في حب فتاة جميلة ، هي زيلداساير، الابنة الصغرى لقاضي المحكمة العليا في آلاباما، التي ستشكل معاناتها ومرضها محور مأساة حياته حتى النهاية.

أصدر عددا من الروايات، منها "هذا الجانب من الجنة" التي حققت له شهرة كبيرة، "الجميل والملعون"، ومسرحية "الخضراوات" التي فشلت فبدأ يكتب قصصا قصيرة حتى يتخلص من ديونه، وبدأ يدمن الكحوليات. وفي ربيع 1924، سافر إلى فرنسا ، بحثا عن الهدوء ،حيث كتب رواية "جاتسبي العظيم" ، فأثارت ضجة بسبب أسلوب كتابتها وبنائها المركب،

وسردها المحكم. وفي عام 1934 ،أكمل روايته الرابعة "رقيق هو الليل".
صدرت له أربع مجموعات قصصية، وكانت فترة 1936، 1937، هي فترة
الانهيار، التي عانى فيها من المرض، والخمر، والديون، وعدم القدرة على
كتابة قصص تجارية. عام 1939، بدأ في كتابة روايته الأخيرة، وكان قد أكمل
نصفها، حين وافته المنية في 21 ديسمبر 1940.

الأرجنتيني روبرتو آرلت Roberto Arlt:



ولد روبرتو آرلت في بوينس آيريس بالأرجنتين عام 1900، ومات هناك عام 1942. كان والداه مهاجرين أوربيين متواضعين. تميّزت طفولته بالفقر والحرمان. فرّ من البيت، متمردا ضد السلطة الأبوية وهو ما زال شابا، وعمل بمهن مختلفة، وتطلع في البداية إلى أن يكون مخترعا، لكنه لم يصب نجاحا يذكر، فتوقف أخيرا عند الصحافة.

تشمل أعماله الرئيسية: مجموعات قصص، منها "ألعاب سريعة" (1926)، "المجانين السبعة" (1929)، "قاذفو اللهب" (1931)، "أحدب قليلا" (1933). وروايات، منها: "يوميات صحفية" (1932)، "نقوش بيونس آيريس" (1933)، "صانع الشبح" (1936)، "مسار حديدي" (1940)، "الصحراء تدخل المدينة"(1942)، "إفريقيا" (1948).

القصة المترجمة من مجموعة "أحدب قليلا" لروبرتو آرلت، الصادرة عام 1933.

آنطون تشيكوف Anton Chekhov:



هو آنطون بافلوفيتش تشيكوف (29 يناير 1860 – 15 يوليو 1904). كان طبيبا، وكاتبا مسرحيا لأعمال رائعة مثل "الخال فانيا"، "الأخوات الثلاث"، "بستان الكرز"، كما يعتبر من أعظم كتاب القصة القصيرة على مرّ التاريخ. كتب أيضا عددا من الروايات القصيرة، منها روايته القصيرة "علبة ثقاب السلامة"، التي تقدم معالجة إنسانية لنوع "القصة البوليسية" المألوف خلال سعي رجال الشرطة الدءوب بحثا عن القاتل المجهول، وذلك في ثوب جديد غير مألوف فيما كتب من هذا النوع، تبلغ ذروة ساخرة من خلال مفاجأة الختام!

الروسي ليو تولستوي Leo N. Tolstoy:



هو ليو تولستوي (1828- 1910)، كاتب روسي عملاق، كتب أولا روايات امتدت شهرتها إلى مختلف أرجاء العالم واتخذت لها مكانا مرموقا في التاريخ الروائي، ومنها روايتا "الحرب والسلام" و"أنا كارنينا"، اللتان تعتبران من أهم الروايات على مر التاريخ. كما كتب كثيرا من القصص القصيرة، ثم كتب في وقت متأخر من حياته مسرحيات ومقالات.

يغلب على إنتاجه الأدبي الجانب الروحاني، وله آراء كثيرة مستمدة من التراث المسيحي. وفي النهاية، أصبح يشار إليه كمفكر أخلاقي ومصلح اجتماعي.

السويدية سلمى لاجرلوف Selma Lagerlof:



مارست السويدية سلمى لاجرلوف (1858- 1940) كتابة الشعر منذ أن كانت طفلة، ولم تنشر أيًا من أعمالها حتى عام 1890، حين فازت بالجائزة الأولى من مجلة أسبوعية في مسابقة أدبية، ونشرت المجلة جزءا من العمل الفائز.

سافرت إلى إيطاليا، حيث كتبت "معجزات فوضوي" التي تجري أحداثها في جزيرة صقلية.

وسرعان ما كتبت عام 1906 الكتاب الذي تقرر تدريسه للتلاميذ في مراحل الدراسة الأولية، وهو رواية "المغامرات العجيبة لنلز" التي جلبت لها شهرة عالمية بعد أن ترجمت إلى معظم اللغات العالمية.

أصدرت بعد ذلك عددا من الأعمال، ثم نالت جائزة نوبل في الآداب عام 1909، وتوفيت في 16 مارس 1940.

الأيرلندي أوسكار وايلد Oscar Wilde:



ولد أوسكار وايلد في دبلن بأيرلندا يوم 16 أكتوبر 1854. كان أبوه جراحا ودارسا للفلكلور الأيرلندي ومؤلفا لبعض الكتب عنه، بينما كانت أمه تهوى الكتابة والأدب، وتنشر ما تكتبه تحت اسم مستعار هو "سييرانزا". وقد زار أوسكار في فجر شبابه إيطاليا وتعلق بآثارها، وأعجب بالإغريق وعبادتهم للجمال.

تخرج من جامعة أوكسفورد عام 1878، وفاز في نفس العام بجائزة للشعر عن قصيدته "رافينا". ثم نشر مجموعة من قصائده عام 1881. ثم أصدر في عام 1888 مجموعة قصص وحكايات "الأمير السعيد وقصص أخرى". ونشر روايته "صورة دوريان جراي" مسلسلة في صحيفة "ليينكوت"، سرعان ما صدرت بعد ذلك في كتاب في إبريل من عام 1891. ونشر "جريمة لورد سافيل وقصص أخرى" في نوفمبر من نفس العام، تبعها بمجموعة قصص خيالية "بيت من الرمان". ثم تدفق إبداعه المسرحي: "سالومي" (1891)، "مروحة ليدي وندرمير" (1892)، "امرأة بغير أهمية" (1892)، "زوج مثالي" (1895). وكانت آخر كتاباته، وهو يقضي فترة في السجن، كتاب "من الأعماق" الذي نشر بعد ذلك في عام 1898. ومات أخيرا في باريس بتاريخ 30 نوفمبر 1900.

ريونسكيه أكوتاجاوا Ryūnosuke Akutagawa:



يعتبر الياباني ريونوسكيه أكوتاجاوا (1892 - 1927) أبا للقصة اليابانية القصيرة الحديثة. تفرغ رينوسكيه تماما للإبداع بدءا من عام 1919، ومنحته القصص التي نشرها شهرة في داخل اليابان وخارجها على حدّ سواء. لكن اعتبارا من عام 1921 بدأت مرحلة تدهور في ظروفه الصحية والنفسية توزّع إبداعه فيها على مرحلتين: الأولى التي استمرت حتى عام 1925 وأبدع فيها قصصا رائعة، حيث نشر قصته المشهورة "في الأيكة" (1922)، التي استعان بها بعد ذلك المخرج الياباني المشهور آكيرو كيروساوا، مع قصة "راشومون"، ليخرج منهما فيلمه العالمي المشهور "راشومون".

جاءت مرحلة أكوتاجاوا الأدبية الأخيرة، خلال عامي (1926، 1927)، موسومة بظروف صحته الذهنية والبدنية المتدهورة، فجاء كثير من أعماله متأثرا تماما بطابع السيرة الشخصية.

صدر من هذه السلسلة

روائع الأدب العالمي في كبسولة (1) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (2) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (3) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (4) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (5) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (6) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (7) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) عرض وتبسيط حمدي عباس

روائع الأدب العالمي في كبسولة (10) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (11) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (12) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (13) عرض وتبسيط حسين عيد